العثمانيون والحضارة

د. عقيل البربار
جامعة طرابلس

" الحضارة... كلمة نطلقها على التقدم والرقي الإنساني في مختلف الميادين العلمية والاجتماعية والاقتصادية ... بما ييسر السبيل إلى حياة إنسانية أفضل. "(1)

ذكر المؤرخون عددا من الحضارات صنعها الجنس البشري وحدّدوا خصائصها وأصولها وما قدمته كل واحدة منها. كتب المؤرخون عن " حضارات مابين النّهرين " 3500 ق.م، والحضارة المصرية القديمة (3100 ق.م _332 ق.م) والحضارة الهندية (بدءًا من 200 م) والحضارة الصينية (بدءًا من 2690 ق.م) والحضارة الفارسية (612 ق.م _330 ق.م) والحضارة الفينيقية (1400_400 ق.م) والحضارة اليونانية (بدءًا من 333 ق.م) والحضارة الرومانية (753 ق.م_476 م) والحضارة العربية الإسلامية (570_1516) والحضارة الغربية(2

كانت أولى الحضارات البشرية "حضارات مابين النّهرين" شملت خمس حضارات، توالت على النحو التالي، الأقدم فالقديم : السّومريون وكانوا قد أنشؤوا أقدم حضارات العالم (3500_2725 ق.م). كان السّومريون أول من استوطن المدن، وذلك عام 3500 ق.م تقريبا. حيث بدؤوا ببناء مدن قائمة بالأجر الطيني كمدينة أور. وأول من ابتدع أول نظام كتابة. في حوالي السنة 3000 ق.م. سقطت الدولة السومرية بسبب هجرة القبائل البدوية دون انقطاع، وتمرّد بعض الحكام المحليين، ثم أخيرا الهجوم الساحق الذي شنه العيلاميون.(2)

جاء بعد السومريين الأكاديّون (2725_1710 ق.م) فالبابليون وعاصمتهم بابل (1839_1670 ق.م)، كان أحد ملوكهم يدعى حمورابي (1791_1749). لقد كان إداريا قديرا وجنديا طموحا امتدت فترة حكمه ثلاثا وأربعين سنة. وكان أول حاكم يوحد جميع البلاد مابين النهرين، ويجعل مدينة بابل أقوى مدينة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. كانت أعظم إنجازاته تجميع (282 قانوناً) عرفت فيما بعد بقوانين حمورابي. جاء بعد هؤلاء الأشوريون (وعاصمتهم مدينة نينوى) (1775_612 ق.م) وقد هاجر هؤلاء من الجزيرة العربية. وقيل أن الشعب الآشوري

شعب نصف بدوي. ثم جاء الكلدانيون (612_539 ق.م) ويطلق عليهم الإمبراطورية البابلية الثانية، وهم مزيج من شعوب عربية وآرامية(3).

حقق إنسان (حضارات مابين النهرين) إنجازات كثيرة من بينها على مستوى الإدراك "فكرة تعدد الآلهة"، والاعتقاد بأن النفس تموت(4). لكنه لم يتطرق إلى موضوع الحساب كالمصريين. واهتم بحفظ الجسد دون أن يتوصل إلى موضوع التّحنيط. كانت هذه المعتقدات في الأصل سومرية لكن شاعت لدى الحضارات الأربع الأخريات. ولهذا يعتبر المؤرخون بأن "الحضارة السومرية" كانت حجر الأساس بالنسبة لديانات ما بين النهرين(5). وعرف إنسان هذه الحضارات العمليات الحسابية بسهولة، كما عرف ببساطة " ما هو قانوني وما هو غير قانوني "؛ وقد ترك أحد الملوك البابليين نصا منحوتا على الصخر " إنه أقدم نص قانوني في العالم، ويعرف باسم قانون حامورابي "(6) كما سبقت الإشارة.

كما ذكر المؤرخون الحضارة المصرية القديمة (3200_332 ق.م) ، وقالوا إنها قسمت البشر إلى طبقتين : طبقة أولى وتشمل الفرعون والنبلاء، وهؤلاء يشملون الوزير والكهنة والموظفين، وطبقة دنيا (أو العامة) تشمل الفلاحين والعمال والجيش والعبيد(7).

عرف المصريون التقويم، فقد لاحظوا أن فيضان النيل يتكرر بانتظام فأخذوا يعدّون الأيام التي تفصل بين فيضانين، حتى استقرّ رأيهم على 365 يوما، فجعلوا السنة اثني عشر شهرا واليوم أربعا وعشرين ساعة يقيسونها بواسطة السّاعات المائية ليلاً والشمسية نهاراً. لكنهم لم يحسبوا تاريخهم تصاعديا بل بدؤوه منذ تولي الفرعون حكمه؛ فإذا مات عادوا منذ البداية يعدّون سنوات حكم الفرعون الجديد. من هنا ظلت معرفة المصريين بالأعداد محدودة، وجهلوا الصفر، وإن أبدعوا في هندسة المساحة. في الطب قطع المصريّون شوطاً كبيراً، لكنهم لم يستطيعوا تحريره من السحر. ومثلما هو الحال لدى حضارات مابين النهرين، عبد المصريون آلهة عدّة. كانت معابدهم مبنية بالحجر، ومعابد مابين النهرين مبنية " بالطابوق المضغوط بحرارة الشمس "(8).

أما لغة المصريين - اللّغة الهيروغليفية - فقد كانت تصويرية في مرحلتها الأولى حيث " الصورة تعبر عن الفكرة ... وفي مرحلتها الثانية كانت المقطعية الصوتية، أي أن تعبّر الصّورة عن مقطع كلمة فتحتفظ بقيمتها الصوتية فقط "(9)." ولأن المصريين كانوا في غاية الحكمة والقوة، فقد استمرت إمبراطوريتهم وقتاً طويلا

جداً، لزمن أطول من أي إمبراطورية أخرى عرفها العالم : ما يقارب ثلاثة آلاف سنة .. "(10)

لم يكتف الفينيقيون - وهي الحضارة الثّالثة التي نشير إليها هنا - في التعبير عن أفكارهم بالكتابات المعروفة لدى جيرانهم. فالكتابة المصرية حتى في مرحلتها الاختزالية، كانت بطيئة التطور، تحن دائماً إلى التّصوير، تستعمل الإشارة والصورة معاً. ومثلها الكتابة المسمارية، حيث يصل عدد مقاطعها إلى الخمسمائة. وكلتا الكتابتين الهيروغليفية والمسمارية لا تفي بحاجة الفينيقيين التجار في حياتهم العملية واليومية. لذلك تجاوزوا المرحلة المقطعية إلى مرحلة حرفية يعبر فيها الحرف عن أبسط الأصوات. وتوصلوا إلى حصر كل الأصوات في عدد قليل من الحروف، فاشتملت على اثنين وعشرين حرفاً ساكناً (لا حركة عليه). ولم يعودوا بحاجة إلى الصورة إلا للدلالة على لفظ الحرف؛ فالثور، واسمه "ألف" بالفينيقية، دلت صورته على الحرف ألف ....وسميت كتابتهم بالأبجدية لأنها تبدأ باللفظ " أبجد "(11).

" أليس ذلك مذهلاً ؟ فقط بستة وعشرين رمزا بسيطاً، لا يزيد كل منها على زوج من الانحناءات، تستطيع أن تكتب ما تريد، حكيما كان أم ساذجا، خيرا كان أم شرا. لم يكن الأمر بهذه السهولة للمصريين القدماء، بحروفهم الهيروغليفية، ولم يكن كذلك بالنسبة للشعوب التي استخدمت الكتابة المسمارية، فقد كانت محاولاتهم مستمرة لاختراع إشارات جديدة لم تعبر فقط عن صوت حرف واحد، ولكن عن مقاطع صوتية كاملة أو أكثر، ففكرة أن يعبر كل رمز عن صوت واحد، وأنّ فقط ستة وعشرين من هذه الرموز كان كل ما تحتاج إليه لكتابة كل كلمة ممكنة، كان ذلك اختراعا جديدا تماماً ..."(12) إن اكتشاف الأبجدية فتح أبعادا جديدة وعميقة في دنيا الشرق، إذ بسطت المعاملات التجارية، وانتزع من فئة الكتبة ما كان لها من امتيازات. وحدّ بذلك من الفارق الطبقي في المجتمع. ولّما اقتبس العالم عن الفينيقيين أبجديتهم " إذ أن جميع الأبجديات (اليوم) من أصل فينيقي "(13). اتسع نطاق التبادل في المعرفة والثقافة والأدب، وكان بالتالي حافزاً لانطلاقة فكرية سريعة برزت مع الحضارة الإغريقية.(14) ". سيطرت المادة على ذهنية الفينيقيين، فعدت قاعدة ثابتة في تنظيمهم الاجتماعي "(15). اهتموا وأبدعوا في التجارة التي صارت مورد حياتهم الأساسي(16) "... لا لأنهم أهملوا الزراعة، بل لأن مساحات البلاد

ضيقة. ففينيقيا ساحل مستطيل تتعاقب على شاطئه السّهول الرّسوبية والرؤوس الصّخرية. وتغطي الغابات جباله فلا تترك للزراعة إلاّ قدرا ضئيلا من السفوح المطلّة على المتوسط..."(17) أبدع الفينيقيون في صناعة السّفن، فنشطت الملاحة في فينيقيا. ساعد على ذلك وفرة الأخشاب وملاءمة الموقع الجغرافي بالنسبة للعالم القديم ثم صعوبة التنقل البري(18). ورغم كل ذلك لم يهتد الفينيقيون إلى استعمال البوصلة، ولكنهم اهتدوا إلى الشمال بواسطة النجم القطبي، وقد سمّاه الإغريق باسمهم أي " النجم الفينيقي "(19)

نأتي بعد ذلك إلى الحضارة الإغريقية التي ارتكزت على المدينة - الدولة (أثينا، إسبارطة ...الخ). كانت هناك المئات من الدول – المدينة، جميعها تحافظ على صلات اللغة والدين والتنظيم، ولكنها تنعزل عن بعضها البعض بسبب الجغرافيا، وبسبب اعتبارات اجتماعية وسياسية ودينية وعسكرية، ثم لعدم تساوي جميع سكان المدينة في الحقوق والحرية. لقد لعبت الجغرافيا هنا دورا مناقضا للدور الذي لعبته عند الفينيقيين؛ لقد اتبعت الدويلات نظاماً اقتصادياً مغلقاً، عززت فيه القطاع الزراعي فضيقت على التجارة مع الخارج، فعزفت من ثم عن الملاحة(20) .

ومثل الإغريق جاءت إبداعات الرومان أو الحضارة الرومانية (753 ق.م_476 م) في الأساس في الزراعة. لقد تقدمت الزراعة على أيديهم بفضل ما خلفوه من آلات وأقنية وأساليب في تجفيف المستنقعات وإخصاب الأرض . أبدع الرومان كذلك في جر المياه بالأقنية، وبنوا بيوتهم من الآجر، وشيدوا مدناً وحصّنوها. لكن الرومان لم يبدوا في البدء أي جناس للأدب والفن، وكان البارزون في الأدب اللاتيني في الأساس إغريقيي الأصل(21) اعتبر -سقوط الإمبراطورية الرومانية - في 476 م بداية لتاريخ العصور الوسطى.

نأتي أخيرا إلى الحضارة الإسلامية وبالتحديد إلى شقها الأول، الحضارة العربية الإسلامية، قبل أن نصل إلى شقها الثاني: الحضارة العثمانية الإسلامية. إنها ثورة اجتماعية كاملة فقد فرض الدين الجديد على جميع المسلمين، بقطع النظر عن اللّون والجنس والعنصر، المساواة والإخاء.

شملت الابتكارات العربية الإسلامية : " ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشري، ونظرية التطور قبل داروين، والدورة الدّموية الصّغرى قبل هاريف، والجاذبية والعلاقة بين الثقل والسرعة والمسافة قبل نيوتن؛ وقياس سرعة الضوء وتقدير زوايا

الانعكاس والانكسار وتقدير محيط الأرض... كان الإدريسي أول من تصور كروية الأرض فصنع كرة أرضية من الفضة أهداها إلى الملك وتصور فيها وجود القارة الأمريكية لحفظ توازن الأرض(22). و نجح العرب كذلك في تحديد أبعاد الأجرام السّماوية وابتكروا آلات فلكية كما اكتشفوا أعالي البحار. يقول البروفيسور يوسف مروّة " العرب المسلمون اكتشفوا أمريكا قبل كولومبس بـ 500 عام ".(23)

أنجز العرب المسلمون إنجازات رائعة أخرى: المسلمون هم من صنعوا الصابون لأول مرة. ذكر ذلك ابن دريد عام 932 هـ " وقبل المسلمين كان المصريون واليونانيون القدماء والرومان يستعملون رماد النباتات، بعد ترشيحه – من أجل غسل الملابس "(24) المسلمون هم من أدخل السكر المصنوع من القصب إلى أوروبا.(25) و استخرج المسلمون الذهب عن طريق الغسل ..... " واستخلصوا العطور بتقطير الورد، وصنعوا أنواع الحبر المختلفة (الحبر العادي والحبر السري والحبر الذهبي) ".(26) ومن الحبر أنتج المسلمون الألوان المختلفة. كذلك فإن المسلمين أول من عرف القهوة في التاريخ .(27) في الزراعة ألف العرب المسلمون كثيراً في علوم الفلاحة مثال : يحي بن محمد بن العوام صاحب كتاب الفلاحة، ثم ابن بصّال، وابن الخير الإشبيلي والحاج الغرناطي.(28)

" بنى العرب السدود، وشقّوا القنوات، وقوّموا مجاري الأنهار ونظفوها وأقاموا عليها الجسور والقناطير .."(29) وقد " وضع العباسيون على وجه الخصوص – للري تشريعات دقيقة ومعقدة أخذها عنهم الأوروبيون فيما بعد(30) كما أبدع العرب المسلمون في الفن المعماري ولا زالت شواهد إبداعاتهم ماثلة إلى اليوم في أسبانيا.

ومع كل الذي مضى من إبداعات وإضافات، نضيف النشاط التجاري الواسع. فقد " حمل هذا النشاط المسلمين على ابتكار بعض النظم المالية والتجارية التي أخذها العالم عنهم. فإليهم يعود الفضل في إنشاء الاتحادات التجارية واستعمال الحوالات المالية والشيكات، وخطابات الاعتماد والإيصالات ووثائق الشحن. فإن التجار المسلمين، في العهد العباسي، قد أنشؤوا لأول مرة في التاريخ، نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية، تنتخب رئيسا لها يسمى " شيخ التجار " يعالونه عدد من الأفراد في النقابة ويعرفون " بالأمناء ".(31)

" وإذا انتقلنا من عالم المادة إلى عالم القيم والمثل العليا، وجدنا أن الحضارة العربية الإسلامية لا تضارعها في هذا المجال أية حضارة سابقة أو لاحقة، وذلك لما

حوته من المبادئ السّامية من كرامة البشر، وحقوقه الإنسانية دون اعتبارات الجنس واللون واللّغة ..... ثم إن العرب هم الذين أعطوا للعالم فكرة إنشاء الجامعات، والجامعات الأوروبية الأولى مثل جامعة سالرنو (سالرنو مدينة في إيطاليا) وجامعة باريس، وجامعة أكسفود، وجامعة بادوا (إيطاليا) وجامعة نابولي، لم تنشأ إلاّ تقليدا لجامعة قرطبة، وإلاّ فلم تكن تعرف أوروبا في العصور الوسطى غير مدارس اللاهوت؛ وأما جامعة مونبيليه المعروفة بدراساتها الطبية في القرون الوسطى فقد أسسها باعتراف الأروبيين، الأطباء العرب المطرودون من أسبانيا بعد سقوط شمالها للأسبان.(32) كان هذا مختصرا لما قدمه المسلمون من إسهامات في حلقتهم الحضارية - الأولى - الحضارة العربية الإسلامية (611_1516).

ماذا عن الإسهامات في حلقتهم الثانية (الحضارة العثمانية الإسلامية) 1280_1923 ؟ ما الذي أضافه العثمانيون إلى الحضارة الإنسانية ؟ لم ينظر المؤرخون إلى الدولة العثمانية بعين الرضا في بداية دراساتهم بعد قيام دول مستقلة في الفترة بين الحربين العالميتين وبعد الحرب العالمية الثانية. المؤرخون العرب اعتادوا إهمالها. العرب لعبوا دورا ثانويا فيها. والفكرة السائدة هي أن الدور العثماني منع الحضارة الإسلامية من التطور، وحتى قتل الحياة. الكل تجاهل الفترة العثمانية. المصريون نظروا إلى الفراعنة، واللبنانيون المسيحيون نظروا إلى الفينيقيين. حتى الأتراك نظروا إلى تاريخهم قبل ظهور العثمانيين. إنها النظرة القومية. قبل ذلك انتشرت فكرة أن التركي (العثماني) أطفأ جمال الحضارة الإسلامية. روسّو مثلا تأسّف لسيطرة " الأتراك البرابرة " على العرب، لكن هذا الأمر غير صحيح : أي شخص ينظر بدقة إلى المناطق التي كانت تحت السيطرة العثمانية (الوطن العربي والبلقان) يلاحظ عمق التأثير العثماني وعمق الوحدة التي ظهرت على أناس مختلفين (المباني، نمط معين من الحكومة والسياسة ...)(33) إن الدولة العثمانية استمرار للحضارة العربية الإسلامية أخذت عنها وأضافت إليها. يتضح هذا الأمر في تبنيها لأرائها ومفاهيمها ومصطلحاتها ومنهجها وثقافتها. كان العثمانيون يمدحون العرب والدليل على ذلك ما قرروه من أن اللغة العربية لغة أولى في جميع المعاهد التعليمية من أو لها ودرّسوا بها كافة العلوم. وكانت اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة السلجوقية والدويلات التي تأسست في الأناضول حتى القرن الثالث عشر ميلادي.(34)

لكن دعونا نعود إلى البحث عن الإضافات التي جاءت بها الحضارة العثمانية الإسلامية إلى الحضارة الإنسانية سواء ما طورته عن الحضارة العربية الإسلامية، وعن باقي الحضارات التي سبقتها، أو ما أضافته ابتكارا. يقول العارفون إن الدولة العثمانية حوت خصائص عامة لم تشاركها فيها مجتمعة دول أوحضارات أخرى. وسوف نتخذ تلك الخصائص مدخلا لاستحضار إضافات الحضارة العثمانية الإسلامية وابتكاراتها.

الخاصية الأولى - الدولة العثمانية دولة عسكرية؛ كان منشؤها الجهاد فاعتمدت على العسكر في حياتها بحيث شكل هؤلاء الطبقة الأقوى و حقق العثمانيون اختراعات لم يسبقها إلىهم أحد في هذا المجال.**الخاصية الثانية - الدولة العثمانية دولة دينية (إسلامية)؛** بمعنى أنها أشادت بالتسامح الديني ونفذت كثيرا من المفاهيم والمقاصد الدينية، سمحت فيه للآخرين بممارسة معتقداتهم. نرى ذلك في عشق الدولة لتشييد المساجد وحرصها في التطبيق الصارم للشريعة، وفي تبني أربع قوافل رسمية لأداء الحج، وفي تشجيع التصوف، وفي القبول وتبني نظام الفتوة الذي كان الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575_632 هـ) قد طوره، وفي تبديل القسطنطنية إلى " إسطنبول " مدينة السلام، وفي ممارسة تقاليد دينية عند اعتلاء العرش وفي الاهتمام بالحجاز وأخيرا في تقلّد ألقاب دينية مثل حامي الحرمين الشريفين.**الخاصية الثالثة - أنها دولة عالمية حكما بتنوعها البشري وتنوع معتقداتها،** وتنوع أصول الوزراء فيها، وسيطرتها على مصادر الغذاء والأمن العالميين لفترة طويلة من الزمن. يقول الأستاذ خليل إينالجيك - مثلا - أنه في الاستطاعة إحصاء ما لا يقل عن ثلاثين صدرا أعظم من أصل ألباني.(34مكرر) **الخاصية الرابعة - أنها دولة طبقية ذات حكم مطلق.**

<u>الدولة العسكرية :</u> كتب المستشرق بروكلمان عن الجيش العثماني يقول: " والحقيقة أن جميع المصادر الأوروبية حافلة بإطراء روح النظام التي تكشف عنها الجيش العثماني. فلم يكن فيه مكان للخمر أو القمار، أو البغاء، وهي آفات لم تسلم منها في يوم من الأيام جيوش أوروبا، لذلك العهد. وكانت الحرب ضد " الكافرين " لا تزال تعتبر واجبا دينيا، ولقد كان لذلك أثرا كبيرا في ضمان الغلبة على النصارى، يوم كان الجيش العثماني في أوج قوته ".(35) كان العسكريون في الدولة لا يشغلون

المناصب العسكرية فحسب بل كانوا يشغلون أيضا الغالبية من المناصب المدنية. أي أن الجيش من اختصاصه الحرب والحكم.

كيف نجح العثمانيون في خلق هذا الإنجاز الرائع ؟

ورث العثمانيون عن العرب المسلمون مفهوم الخدمة العسكرية، ومفهوم التطوع ومفهوم الحرب الجهادية (نظام الفتوة)، وهي مفاهيم كان لها الدور الأساس في قيام دولة آل عثمان في الأساس. ولهذا لابد لنا من وقفة حيال هذا الأمر لتصحيح مفهوم يتكرر كثيرا في البحوث والدراسات التي تصدر عن الدولة العثمانية. هذا المفهوم الأخير يطابق العثمانيين بالأتراك، والصحيح غير ذلك؛ ولا يصح إطلاق الأتراك على كل مكونات الدولة العثمانية دون غيرهم قبل 1908م.

<u>مفهوم التجنيد والخدمة العسكرية:</u> كان التجنيد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر قائما على مبدأ التطوع والانتداب. جاء الخليفة عمر بعد ذلك ونظم الجيش الإسلامي بأن وضع "الديوان". كتب أسماء المسلمين جميعا في دفاتر ورتّب لهم فيها أرزاقهم السنوية (مابين 5000 و 1000 درهم)، حدّدت هذه الرواتب الجنود النظاميين، وهؤلاء موقوفون للجهاد لا يشتغلون بغيره من تجارة أو زراعة أو غيرها، وإن فعلوا ذلك عوقبوا، وحدّدت كذلك المتطوعين الذين يجندون وقت الحرب، ويسرحون وقت السلم.(36)

كانت القوات توزع من حيث التشكيلات على أساس قبلي قبل زمن الخليفة عمر بن الخطاب. أما في عصره فقد قسمت إلى وحدات تتكون كل واحدة منها من عشرة أنفار عليها عريف، وعلى هؤلاء أمراء. وفي معركة اليرموك شكل خالد بن الوليد الجيش إلى كراديس، ويمثّل ذلك نقلة نوعية(37) من الأساس القبلي إلى أساس تنظيمي دون النظر إلى أصل أو نسب وميز الخليفة عمر الناس في العطاء على النسب والسّابقة إلى الإسلام. فرتبهم طبقات كما يلي :

1 - لكل واحد من المهاجرين والأنصار الذين شهدوا غزوة بدر الكبرى 5000 درهم
2 - لكل واحد من المهاجرين والأنصار الذين لم يشهدوا غزوة بدر الكبرى 4000 درهم
3 - لكل من أزواج النبي 1200 درهم
4 - العباس عم النبي 1200 درهم
5 - الحسن والحسين 5000 درهم

6 - عبد الله بن عمر بن الخطاب 3000 درهم

7 - كل واد من أبناء المهاجرين والأنصار 2000 درهم

8 - كل واحد من اهل مكة 800 درهم

9 - كل واحد من سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم 300 - 500 درهم

10 - كل امرأة من نساء المهاجرين والأنصار 200 - 600 درهم

" يضاف إلى رواتب العسكر المذكورة (300 – 500 درهم) ما كان يدفع لنسائهم وأولادهم وما فرض لهم من الحنط وهو جريبان لكل واحد في الشهر والجريب 3600 ذراع مربع، ويراد به ما ينبت في تلك المساحة ".(39)

في عهد الدولة الأموية، صار عنصر الالتزام والإلزام ضعيفاً، فحل محله المال كأداة للتجنيد في الدولة، وعند العلويين والزبيريين وكذلك عند الخوارج. واستقر الحال في الدولة العباسية حيث كان التجنيد خاضعاً للمال، فصارت الجندية مهنة.

ومازال العطاء يدفع نقدا إلى أيام الدّولة السلجوقية، فصار يعطى إقطاعا، وأول من فعل ذلك نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق (توفي في 485 هـ) فقد رأى أن الدولة السلجوقية قد اتسع نطاقها فأحب أن يحفظها بالإقطاع، فحوّلها إلى إقطاعيات سلمها للجند.(40)

أما الجيش العثماني فقد كان قويا مكّن العثمانيين في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر – طبقا للمؤرخ الروسي إيفانوف، من احتلال الطليعة بين جيوش العالم. كانوا يملكون أسطولا قوياً، ومدفعية فاعلة، وتنظيما رائعاً، وفرق إسناد وقوى استطلاع.(41) " والأمر الذي أحرز فيه العثمانيون تفوقا لا نزاع فيه مجال المدفعية. إذ كان العثمانيون وباعتراف الجميع، يملكون أفضل مدفعية في العالم. فكانت الأكثر إتقانا من الناحية التكتيكية إن لجهة عياراتها أو لدقة التصويب فيها. وقد شملت مدفعية الحصار الثقيلة، ومدفعية الميدان والمدفعية النقالة الثقيلة التي كان نصبها على عربات تجرها الخيل أو توجهها الريح بواسطة الأشرعة ".(42)

أمّا قصة بنائه فهي كالآتي : تفيدنا المصادر أنه مرّ بمراحل خمس : الأولى مرحلة الغازيان (أو المجاهدين). الثانية الفرسان الإقطاعيون. الثالثة المرتزقة. الرابعة الإنكشارية (يني شيري أو الجيش الجديد) الخامسة الجيش المحمدي المنصور.

سنتحدث عن المراحل الأربع الأولى حيث كان العثمانيون مبدعين، ونترك المرحلة الخامسة – التي صاروا خلالها نقلة للعقيدة العسكرية الغربية وتنظيمها الفني والسّلاح.

المرحلة الأولى : (الغازيان أو المجاهدون):

هي مرحلة مبنية على التطوع والانتداب ومدفوعة بالأساس بالإحساس بواجب الجهاد في سبيل الله. تطوع في هذه المرحلة مسلمون من كل الأصقاع بما في ذلك من المغرب (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والصحراء). صار الجهاد هدف الشباب وتكونت على أساسه إمارات إسلامية على حدود الامبراطورية البزنطية. (إمارات تكة ومنتشة وآيديين وصاروخان وقره حي وإمارة جرميان وسينوب وجندر).(43) لقد تغلغل المفهوم في الثقافة العثمانية حدا " نسى " فيه المشاركون (خاصة القبائل التركمانية) أصولهم العرقية، وصار مصطلح المجاهد (الغازي) أكثر المصطلحات تبجيلا حتى انتحله لاحقا مصطفى كمال أتاتورك رغم أنه أجهز على الدولة العثمانية، واستبدلها بالجمهورية التركية في 1924م.

أما عن الإطار التطبيقي لهذه المرحلة فقد وفّره نظام الفتوّة، الذي كان قد جدده الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575 -632 هـ)(1180 -1225). لقد نجح هذا الخليفة العبقري في خدمة الدّولة والمجتمع بأن وفق بين " طائفتين متعاديتين لبعضهما ومعاديتين للدولة العباسية في الوقت ذاته، هما العلويون والحنابلة وأدخلهما للدولة. قطع دابر الطائفية من دولته وأزال آثار الأعاجم وأحسن انتخاب أو اختيار الرجال للأعمال ووضع جهازا ومؤسسة للاستخبارات، واستعمل أنواع الحمام الزاجل لنقل الأخبار "(44) لقد " جدّد نظام الفتّوة في العالمين العربي والإسلامي وأدخل أغلب السلاطين والملوك والأمراء فضلا عن الرّعايا فيها، وكان هو رئيس الفتوّة في جميع البلاد ".(45)

يقول د. الشناوي إن نظام الفتوّة انتقل إلى المناطق التي دخلها الإسلام " وكان.... موجودا في الأناضول قبل قيام الدولة العثمانية ".(46) ومصطلح الأخية والأخيات، والفتيان قد تكون مأخوذة في الأصل من اللّفظ العربي إخوان، وأن مفرد أخيان هو أخي، الرجل الذي يجمع بين الشهامة والكرم.

قلنا إن الخليفة العباسي الناصر لدين الله جدّد نظام الفتوة وكان دافعه :

" بث روح جديدة وعزيمة فتية في نفوس الشباب والقادة من الأمة الإسلامية بأن ينخرطوا في الفتوة وينتموا إلى الخليفة الذي يعتبر رأس التنظيم، وبهذا يستطيع أن يواجه المخاطر التي تهدد الدّين والدولة ".(47)

جاءت فكرة التنظيم من الآية الكريمة " إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى " سورة الكهف الآية (13). وقد لخّص لنا ابن المعمار صاحب كتاب الفتوة، الذي حققه مصطفى جواد عام 1960 ونشر في مدينة بغداد، على النحو التالي :

" وأهم ما يندب الفتى لفعله الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاءوا به في عقيدته وعبادته ويحسن في ضميره و طويته ويحمد في سيرته وطريقته ويراقب الله في سرّه وجهره وعلانيته. ويحافظ على فرائض دينه. ينطق بالصواب يصل الأرحام ويصلي والناس نيام. يفي بالدماء ويزهد في الحرام يصنع المعروف ويحسن قرى الضيف وينشر الإحسان ويعين الإخوان يبار والديه ويحسن إلى من أساء إليه، .. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ".(48)

التقى بهم الرحّالة ابن بطوطة، الذي عاصر السلطانين عثمان (1299_1326) وابنه أورخان (1326_1360). زار ابن بطوطة الأناضول زمن أورخان وخالط الإخوان وتحدث عنهم تحت اسم الأخية الفتيان. قال عنهم : كان الأخية الفتيان يحملون معهم الأسلحة في حلهم وترحالهم. وكانوا كراماً وأصحاب شهامة، يتسابقون في إكرام الضيف، وكانوا جميعا سُنّيين ولم يكن لهم طريقة صوفية خاصة بهم، وإن كانوا صوفيين.(49) ونضيف أن " الأخية ... بجميع البلاد التركمانية الرومية... (وأعمالهم) هي الفتوة، المقدم منهم أي مُقدّمهم يُسمّى الآخي ويُسمّونَ الفتيان.(50)

ويقول محمد فؤاد كوبلي إن الأخية الفتيان كانوا عزاباً ومتزوجين وأنهم من أصحاب الثروات " وكان لهم أدوار خطيرة في تأسيس الدولة العثمانية وفي إنشاء فرق الإ نكشارية في الجيش، وكان السلاطين العثمانيون وكبار القادة ينزلونهم منازل التكريم".(51)

كانت لهذه الآخيات نظم اجتماعية طوباوية عثمانية شملت : (1) مبادئ الإسلام وأفكاره عن المساواة و الأخوة بين الجميع والعدالة الاجتماعية والوفاق والعمل كمصدر وحيد لتلبية الحاجات المادية للإنسان، وإدانة مظاهر الترف والثراء وضرورة التواضع في العيش والابتعاد عن الإسراف وتحاشي استغلال الإنسان للإنسان ". كان

الفلاحون في الأصل يقاومون الاضطهاد الإقطاعي في الأناضول تحت شعار وأنظمة الأخيات تلك.(52) " لقد صيغت تلك النظم والشعارات في النهاية في تعاليم المتصوف الأندلسي محي الدين ابن عربي (1164_1240) وأتباعه في الأناضول خاصة جلال الدين الرومي (1207_1273) الذي كان بمثابة المرشد الروحي للشاب عثمان الأول، وتوحدت تحت قيادته حركات الغزواتيين وحركات الأخائيين لأول مرة في التاريخ العثماني الإسلامي "(53)

تعود الأفكار المثالية الاجتماعية والتيوقراطية العثمانية في خطواتها الأساسية إلى نظرية ابن عربي، وإلى معتقده بألوهية الكون، وإلى التسامح الديني إلى جانب إغراق الناس والإنسان المحروم والمضطهد في المثالية. وكان أتباع ابن العربي من العرب و الأتراك على السواء لا سِيما أعضاء فرق الدراويش كالمولية والبكطاشية يتمتعون بنفوذ لا يُنَازع في الدولة العثمانية.

بعد انتصار العثمانيين ومع تطور عثمنة الدولة أخذت مُثل الأخيات وجمعيات الغراوتين القديمة تكتسب طبيعة الأيديولوجية الرسمية (أ) في بداية تكوين الدولة قدمت النظرية الاجتماعية الطوبائية للعثمنة كنقيض " للاتينية " (ب) بعد 1453 بدأت في البروز تفاسير للشريعة الإسلامية بمسحة عثمانية تجسدت في أعمال :

(1) الفقيه العثماني محمد بن فيرامورزي أو الملا خسرو في كتاب : درر الأحكام عام 1470.

(2) الفقيه إبراهيم الحلبي " ملتقى الأبحر " عام 1517 وقد تم تثبيت التفسير " الجديد " للشريعة الإسلامية في قوانين السلطان بابريد الثاني (1481_1512) وسليمان القانوني (1520_1566).

خلاصة الحديث ان أصل الدولة العثمانية ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية وولادتها يعود بالأساس " كنتيجة لانتصار الانتفاضات التي قامت بها حركات الأخيات (جمع آخي) تحت راية الإسلام ". لقد كانت " تلك الحركات هي التي ساندت آل عثمان وأوصلتها إلى سدّة الحكم "(54) وكانت هذه الحركات تشمل متطوعين مجاهدين من كل العالم الإسلامي.

المرحلة الثانية: الفرسان الإقطاعيون :

بدأت جذوة القتال المدفوعة بمفهوم الجهاد تتباطأ مع قيام الدولة. كذلك فإن الغازيان فرسان مهرة وشجعان إلى حد التهور منذ قديم الزمان ولم يكونوا يعرفون حرب الحصون.(55) من هنا تبينت حاجة الدولة إلى جيش ثابت يكون تحت أمرها في كل الأوقات يعمل مقابل دفع (أوقجة) كل يوم ومن الحملة أو الحملات. فشلت التجربة بسبب مغالاة الناس في مطالبهم فانبثقت الفكرة لدى السلطان بإلغاء هذا.

شكل الجيش من النصارى (بعد إدخالهم إلى الإسلام) وقسم إلى مجموعات أطلق عليها اسم فرق : 10 أنفار و 100 نفر و 1000 نفر. واستبداله وقد ساعدته في ذلك فكرة احتفاظ بيت المال بخمس الغنائم فصار هذا مورداً للدولة يمكن إنفاقه على جيش نظامي تحتفظ به على قدم الاستعداد. من هنا، برزت فكرة الفرسان الإقطاعيين و مؤداها الاستعداد للحرب إلى جانب الدولة مقابل إقطاعات يمنحها لها السلطان. كانت الفكرة أن هؤلاء سيحافظون على الأراضي المستولى عليها. نعمت الخيالة في عهد أورخان بتنظيم محكم. وصل عددهم إلى 2400 رجل ثم صاروا 1600 رجل. وكانوا مكلفين براية الإمبراطورية التي استبدلت براية النبي صلى الله عليه وسلم منذ عهد السلطان سليم. كان الفرسان هؤلاء مسلمين معفيين من الضرائب خاضعين لإمرة بكوات السناجق(56) ومثل ما أخذ العثمانيون فكرة الفتوّة وطوروها في المرحلة الأولى، أخذوا كذلك فكرة الإقطاع من بني بويه وهي دولة شيعية (334_447) تدين بالمذهب الزيدي وطوروها هي الأخرى. لكن مع مرور الوقت تراخت هذه المؤسسة وبدأ الفرسان يغالون في طلباتهم ويقلّلون من الإيفاء بالتزاماتهم تجاه الدولة.

المرحلة الثالثة : (الجيش الجديد)

دفعت تلك المغالاة السّلطان ومستشاريه إلى الإتيان بفكرة جديدة : فبدل تكوين الفرق من المسلمين (أتراكاً وعرباً وأكراداً ... الخ) صار تكوينها من فرق النصارى بعد إدخالهم إلى الإسلام. بدأ الأمر بألف غلام نصراني كأول خطوة يشكلون " القوة الجديدة " (يني شاري ... ومنها الانكشارية) في العام 1330 " نظمت - وفق رأي كارل بروكلمان - تنظيما شبه ديني على غرار جمعيات الفرسان النصرانية التي أنشئت للنضال ضد أعداء الكنيسة ".(57)

لكن هناك عدّة ملاحظات مهمة يجب التنبيه بها خاصة أننا لا نجد لها ذكرا في الدراسات الغربية. أولى هذه الملاحظات أن هذه الفرق الجديدة لم تكن مقتصرة على النصارى. لقد " التحق بهذه الفرق جماعات من الشعب " غير المريدين " من مثل الـ " أخيان " الذين سبق ذكرهم، وذلك أن آسيا الصغرى " كانت دائماً أرضا خصبة جداً لمختلف الطرق الدينية المنصرفة إلى حياة الزهد والتصوف، العاملة أيضا في حقل الخدمة الاجتماعية وفي العناية بأمر الرّحالة (المسافرين) الأجانب على الخصوص ". من هنا انضوى الانكشارية تحت لواء الطريقة البكتاشية ".(58)

الملاحظة الثانية هي أن هناك إنكشارية (يرليه = محلية) (جزائرية، تونسية، طرابلسية، شامية ..... إلخ) وإنكشارية قبيقول (عبيد الباب : أي باب السلطان). هناك تفسير لهذه الظاهرة مفاده أن الانكشارية الذين بقوا مدة طويلة في الأطراف (دمشق مثلاً ..) والتي أهملت الدولة تجديدها ورفدها بعناصر جديدة، لجأ ضباطها – وقد طال بهم المقام، إلى تجنيد عناصر جديدة من السكان المحليين. لذلك لم يكن غريبا أن ينتبه السلطان العثماني باكرا لخطورة هذه الزّمر، فيرسل فرمانا إلى والي دمشق عام (1577) يأمره فيه بأن يعيّن في الوظائف التي تشغر في طائفة الانكشارية أناساً من الروم وليس من السكان المحليين، ولكن كما يبدو فإن الفرمان لم يطبق بدقة فاستمر المحليون في الانتساب إلى أوجاقات الإنكشارية. ويمكن ملاحظة هذا الأمر من خلال تتبع الأسماء غير التركية التي بدأت تظهر بينهم ".(59) وبرزت الظاهرة نفسها في إيالات الثغور (طرابلس وتونس والجزائر) ولم تعارض الدولة العثمانية ظاهرة الانتساب تلك في إيالات الثغور.

<u>التسليح :</u>

أبدع العثمانيون في مجال التسليح، فقد كانت المدفعية العثمانية أقوى مدفعية في العالم. وقد استعمل مدفع الهاون لأول مرة في التاريخ في عهد السلطان محمد الفاتح (1451 _ 1481). كان المدفع اختراعا حديثا مروعا غيّر مجرى التاريخ وكان مدفع الهاون اختراعا عثمانيا عرفه العالم لأول مرة أثناء حصار العثمانيين للقسطنطينية كما كان المدفع الضخم خاصة مع الهاون أكبر عامل في فتح المدينة ".(60) تزيد قذيفة المدفع الضخم عن 1500 كيلوغرام، وكانت من الحجر والبارود ومداها ميل واحد(61)

وبالإضافة إلى إبداعات العثمانيين في مجال الجيش تنظيما وتسليحاً كان لهم إبداع في مجال الأساطيل. لقد أضاف العثمانيون أسطولا وعلما بالبحار وخرائط بحرية وكانوا في كل ذلك مبتكرين. ترك قادته من أمثال الرئيس بيري والرئيس كمال والرئيس خيرالدين والرئيس درغوت بصمات في عالم البحار ومؤلفات في هذا العلم. لقد بنوا أسطولا ظل حتى العام 1868 الأسطول الثالث بعد الأسطولين الإنجليزي والفرنسي.

كان الرئيس بيري – القائد البحري العثماني، والعالم الجغرافي الفذ، وهو معروف في الأدب العثماني باسم بيري رّئيس. شغل منصب قائد الأسطول المصري في العهد العثماني بدءا من العام 1547. ولد في العام 1465 وتوفي في العام 1554. ألف كتابا بعنوان " كتاب البحرية " جاء في 743ص. رسم الرّئيس بيري خريطتين، الأولى لأسبانيا والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إلى فلوريدا. يقول الرّئيس بيري في كتابه : " ان بحر الغرب (يقصد المحيط الأطلسي) بحر عظيم، يمتد بعرض 2000 ميل تجاه الغرب من بوغاز سبتة وفي طرف هذا البحر العظيم توجد قارة هي قارة انثيليا ..." وتعبيره (قارة انثيليا) هي الدنيا الجديدة أو أمريكا ... وقد كتب الرئيس أن هذه القارة اكتشفت عام 870هـ أي قبل اكتشاف كولومبوس لأمريكا بحوالي 27 سنة.(62)

" في 1965/8/26 عقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية ندوة إذاعية عن خرائط الرئيس بيري. إتفق كل الجغرافيين المشتركين فيها بأن خرائط بيري لأمريكا اكتشاف خارق للعادة ".(63)

كتب الرئيس بيري عن كروية الأرض قبل رحلة مجلان ورسم خرائط لأمريكا مع سواحل غرب أفريقيا. ورسم كذلك خرائط لشمال أفريقيا وسواحل البحر المتوسط. يقول الفرنسي " لاروشي " في كتابه الصادر عام 1963 " إنّ هذا أمر يعلو ويفوق كثيراً على علم الجغرافيا في ذلك القرن وعلى علم الجغرافيا لدى الأوروبيين "(64)

وقد اعترف العالم بالإنجاز البحري العثماني. انظر ما قاله <u>إيريك فون دانكين</u> مؤلف كتاب : **عربات الآلهة** نقلاً عن العلماء : " إنه بمقارنة صور الأرض التي تم التقاطها من مركبات الفضاء في القرن العشرين طبعا – بالخرائط التي رسمها

القائد البحري العثماني الرّئيس بيري في البدايات المبكرة للقرن السادس عشر، اتضح التشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيري "(65)

ويضيف الكتاب نفسه :

" سلمت خرائط بيري .... في 1957 إلى الراهب الجزويتي بينهام المشرف على الأرصاد في ويستون ورسّام الخرائط في أسطول الولايات المتحدة الأمريكية. وقام بينهام بدراسات دقيقة لهذه الخرائط ثم أعلن : أنه وجدها صحيحة بدرجة مذهلة للعقل(65مكرر)

وبالإضافة إلى علوم البحار وبناء الأساطيل فقد أقام العثمانيون أول جيش نظامي. كان الجيش مدرسة لدى الدولة العثمانية، أنتجت معظم عباقرتهم. من هؤلاء العباقرة كان سنان باشا (1490_1588) الذي كان جنديا في معركة جالديران 1514/8/23. قيل أنه كان معجبا بالسلطان سليم وحزن على موته وسجل هذا الحزن في كتابه : تذكرة الأبنية. لا تزال مساهمات سنان واضحة للعيان حتى يومنا هذا.

الدولة الدينية :

بدأت الدولة العثمانية دولة غازية، أي مجاهدة. يتضح هذا الأمر في الخيط الرابط بين كل العناصر التي اشتركت في إقامتها. اشترك فيها الأتراك و العرب والمماليك وسكان شمال أفريقيا من عرب وبربر وعناصر من سكان العالم الإسلامي قاطبة آنذاك. لا يحتاج المرء أكثر من النظر إلى " الفتوة " التي كانت الهيكل التنظيمي لتلك العناصر. الدولة العثمانية دولة دينية بمعنى أنها تستند في شرعيتها وفي رسالتها إلى الدين (الإسلام) أشادت ونفذت الكثير من المفاهيم والمقاصد الدينية. هذا حال دول العصور الوسطى جميعها. لكن الدّولة العثمانية اختلفت في أنها سمحت فيه لمواطنيها غير المسلمين بممارسة معتقداتهم. لم يكن الحال كذلك عند الدولة الأسبانية مثلا، إذ وقفت وراء المسيحية الكاثوليكية تدعمها، لكنها حرّمت على غيرهم اتخاذ معتقد آخر. لقد طبقت الدولة العثمانية نهج الإسلام ونهج السنّة النبوية بالسماح بحرية العبادة وحرية الوجود الإداري داخل الدولة. إنه تطبيق لميثاق المدينة، المدينة المنورة : يقول د. إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي في كتابهما، **أطلس الحضارة الإسلامية :**

" كان دستور الدولة الإسلامي (ميثاق المدينة) يعد اليهود " أمة " قائمة بذاتها ضمن الدولة. وقد منح مجلس الأحبار سلطة الفصل في جميع الأمور اليهودية وتسويتها. وكانت هذه أول مرة تعترف فيها أية دولة بشرعية الوجود الجماعي لليهود وبالقوانين التوارتية منذ هزيمتهم وتفرقهم على يد الرومان "(66)

نرى دينية الدولة في سعيها الحثيث في نشر الإسلام سليما وفي بناء المساجد وفي الحرص على تطبيق الشريعة، وفي تبني قوافل الحج (قافلة الحج الشامي، قافلة الحج المصري مصر وشمال أفريقيا، قافلة الحج العراقي وقافلة الحج اليمني) وفي تبني التصوف وتشجيعه وفي القبول والاستفادة من نظام الفتوة، ومن الاهتمام بالحجاز ومن ممارسات تقاليد دينية عند اعتلاء السلطان الجديد لعرشه (إجراء مراسيم التنصيب في جامع الصحابي الذي كان قد استشهد في الحملة الأموية لاحتلال القسطنطينية عام 670 م أيوب الأنصاري). وفي امتشاق ألقاب ذات صفات دينية وفي استبدال اسم القسطنطينية بإسطنبول، مدينة السّلام، وفي الاهتمام بالحجاز حيث شمل هذا الاهتمام : 1/ الإعفاء الضريبي ثم 2/ الإعفاء من الخدمة العسكرية وأخيرا 3/ الحكم الذاتي للحجاز،

<u>الألقـــاب :</u>

لقب السلطان يشير إلى رؤية الدولة ورسالتها. كان لقب الأمير عثمان " الغازي " ولم يتخذ لقبا آخر. أورخان ابن عثمان لقب نفسه سنة 1334 بـ" السلطان " ابن سلطان الغزاة، الغازي ابن الغازي، مزربان الآفاق، بطل العام "(67) وبدءا من السلطان بايزيد الأول أعطى السلطان اللقب عن طريق الخليفة العباسي في القاهرة. ومع مجيئ محمد الفاتح وفتحه القسطنطينية لقّب بـ " سلطان <u>البرين والبحرين</u> " ومع فتح مدينة أدرنة تَسمّى **مراد الأول** بلقب " خليفة اللّه " وأخيراً خادم الحرمين الشريفين أو حامي حمى الحرمين الشريفين.

أما الدولة فقد أطلق عليها عدّة أسماء:

" دولت علية " أي الدولة العليّة، و " سلطنة سنّية " أي السلطنة السّنية و " امبراطور لق عثمانلي " أي الامبراطورية العثمانية ثم " دولت عثمانلي " أي الدولة العثمانية.

<u>من القسطنطينية إلى اسطنبول، مدينة السلام.</u>

القسطنطينية حوصرت إسلاميا قبل الفتح العثماني لها إحدى عشرة مرة، أولها عام 52هـ في زمن معاوية ابن أبي سفيان(68)، لكن العثمانيين هم من استطاع فتحها في 1453م. كان الحدث كبيراً هزّ أطراف العالم حدا أسدل الفتح الستارة على العصور الوسطى. أما بالنسبة للعثمانيين فقد زاد فتح القسطنطينية من هيبتهم وشرعيتهم وتقديرهم في عيون المسلمين وزاد من الخوف في عيون الأوروبيين. تَلقّب السلطان محمد الثاني بعد ذلك بالفاتح، وبسلطان البرين والبحرين. طبقت الدولة العثمانية مفهوم الإسلام في العلاقات الخارجية. لقد وظفت كل الأدوات تقريباً من حرب وامتيازات ومعاهدات وحصار اقتصادي وتجارة وتحالف لتطبيق ذلك المفهوم. لكن لاحظ أنها لم تتحالف مع كافر ضد مسلم بل سعت إلى تأييد هذا الأخير. قارن هذا الموقف بالتحالف الحفصي مع الأسبان ضد العثمانيين. أثبت العثمانيون قدرة على تنفيّذ المفهوم الإسلامي للحرب. انظر ما فعله محمد الفاتح – وكان سلطانا في الواحد والعشرين من عمره – عند فتح القسطنطينية. " وحسب أوامر السلطان محمد الفاتح ... لم تغتصب امرأة، ولم يُمسّ شيخ عجوز ولا طفل ولا راهب بأذى .... ولم تهدم كنيسة ولا صومعة ولا دير ولا بيعة ".(69) كتب هذا الراهب رئيس الكنيسة الأرثوذكسية في اسطنبول في مذكراته.

<u>عالمية الدولة العثمانية :</u>

معنى هذا أنها كانت ذات تنوع بشري كبير في سكانها، تعي الاختلاف في العقيدة وتقرّه، وتتعامل مع قاطنيها ليس وفق انتمائهم العرقي ولكن وفق وضعهم الوظيفي. ولكن الأهم من كل ذلك في هذا المجال أن تأثيراتها في سياسة العالم كانت حاسمة بسبب سيطرتها على غذاء العالم ثم أمنه في فترة من الفترات. من هنا أطلق عليها بعض المؤرخين إمبراطورية، رغم أنّ العثمانيين أنفسهم لم يفعلوا ذلك إلا في فترة متأخرة.

لم يحدث أن سيطرت دولة على مصادر الحبوب (ومن ثم الغذاء) في العالم آنذاك مثل الدولة العثمانية. كانت الدولة الوحيدة التي استطاعت أن توحد ما صار يعرف فيما بعد بالشرق الأوسط كله. فشلت الإمبراطورية الفارسية وكذلك العربية في ضم الجزء اليوناني من المنطقة. الإمبراطورية الرومانية فشلت في ضم العراق. ضمت الإمبراطوريات الفارسية والعربية والعثمانية بالفعل العراق و مصر. لكن العثمانية وحدها التي سيطرت إضافة إلى ذلك على اليونان. كانت تلك الأماكن (مصر

والعراق واليونان) المناطق الرئيسية لتصدير الحبوب قبل فتح أمريكا وأوكرانيا لزراعة الحبوب في القرن التاسع عشر(70).

ومع الغذاء والسيطرة عليه، اكتملت الحلقة بالسيطرة على الأمن العالمي. لم تعقد اتفاقية ولا تفاهم ولا معاهدة إلاّ وكانت الدولة العثمانية راضية عنها أو محدّدة لها إلى العام 1699. صارت الدولة العثمانية عنصر توازن في السّياسة الأوروبية هذا ما يخبرنا به د.خليل إينالجيك. ويضيف قائلاً لقد بقت الدولة عاملا مهما في السياسة الإيطالية زمن الحروب الإيطالية (1494_1525) وقد حافظت البلاطات الإيطالية على علاقات دبلوماسية مع الدولة العثمانية. هدّد الإيطاليون بوجود تحالف سري مع العثمانيين، والدويلات الإيطالية التي تشعر بالضغط تهدد بحرب من العثمانيين. وقد استخدم العثمانيون هذه الظروف ضد البندقية(Venice) واتبع الفرنسيون الإيطاليين في هذا الشأن. لقد أسهم دور توازن القوى في السياسة الأوروبية في القرن 16 الذي لعبه السلطان في قيام الدولة الوطنية في أوروبا. كان مساندة البروتستانت والكالفنيين خلال القرن 16 والقرن 17 أساسيات مهمة في السياسة العثمانية في أوروبا، كما أن ضغط العثمانيين على آل هابسبورغ كان عاملاً مهماً في توسّع البروتستانتية في أوروبا(71)

<u>الدولة العثمانية دولة طبقية ذات حكم مطلق :</u>

نقول إن الدولة العثمانية ذات حكم مطلق إذ كانت السياسة من وضع السلطان وهو رأس الدولة. ونقول إنها كانت دولة طبقية بمعنى أنها تضم أفرادا من العبيد (أو الارقاء) وأفرادا من الأحرار. الهيئة الحاكمة (أهل السيف) من أصغر فرد إلى الصدر الأعظم _ ماعدا أفراد الأسرة السلطانية هم عبيد للسلطان، يخاطبون بتلك الصفة ويتباهون بها. كان هؤلاء معفيين من الضرائب ولا يخضعون للقضاء العادي الذي يخضع له رعايا الدولة – يأتي بعده أفراد الهيئة الإسلامية (أهل القلم والعلماء) وهؤلاء من الأحرار، ويشتركون في صفة الإعفاء من الضرائب. لا علاقة للهيئتين بالإنتاج المادي. العمل المناط بهما الحرب والحكم لا غير. الطبقتان الأخريان هما المكلفتان بالإنتاج المادي وبدفع الضرائب. إنهما التجار والحرفيون ثم الفلاحون.

ما يلفت الانتباه أن الكفاية كانت المعيار الأول في الالتحاق بالجيش أو في تقلد المناصب الإدارية الكبرى. وفي هذا الأمر تختلف الدولة العثمانية عن الدول الأوروبية المعاصرة لها، وحتى عن الدول الإسلامية التي سبقتها. " كان تقلد المناصب الكبرى (

في الدول الأوروبية) مقصورا على الأصل وكرم المحتد، فلا تشغل في معظم الأحوال إلا طبقا لنظام الوراثة يتقلدها النبلاء والبارونات والأدواق ومن يليهم من أصحاب الرتب والألقاب الموروثة ".(72)

أما في الدول الإسلامية التي سبقت الدولة العثمانية فكان تولي المناصب الكبرى مرتبط بعلاقة الدم وبالقرابة العشائرية إلى حد أن حملت تلك الدول أسماء العشائر (دولة بني العباس، دولة بني أمية، دولة بني بوبه .... الخ).

أما عن كون الدولة العثمانية ذات حكم مطلق فهذا صحيح مثله مثل الأعراف والأنظمة السائدة وقتذاك. الحكام الأوروبيون – على سبيل المثال كانوا كذلك؛ وزاد هؤلاء بتمسكهم بمبدأ الحق الإلهي الذي جعلهم فوق مستوى النقد والمساءلة. أما السلاطين العثمانيون فرغم أن سلطاتهم مطلقة فهم من كانوا يضعون السياسة العليا، إلاّ أن هناك عاملا مهما حدّ من تلك السلطات : مبادئ الشريعة الإسلامية. لقد لعبت الهيئة الإسلامية التي كانت مسؤولة عن تطبيق الشريعة عامل تخفيض من الحكم المطلق حتى إنه تمت إزاحة أكثر من سلطان عن العرش استناداً إلى فتوى من المفتي. هل يمكن أن نطلق عليه نظام حكم " استبداد مقيّد "؟ على رأي المؤرخ الأمريكي لايباير والمؤرخ العربي المصري الشناوي.(73)

لكن دعنا نسأل سؤالا لتكتمل الإجابة على الصورة. من أين جاءت أصول فكرة الحكم والدولة عند العثمانيين ؟

يقول كمال كاربات -أحد أفضل المتخصصين في التاريخ والحضارة العثمانية عمقا " أن العثمانيين ورثوا ثلاثة تقاليد منفصلة ". لقد ورثوا تقاليد كل من : 1/ الإمبراطورية العربية الإسلامية. 2/ الإمبراطورية الرومانية المسيحية. 3/ الرّعاة الرّحل من " استيبس أوراسيا . ويذهب كاربات " إلى أن ميراثها العربي الإسلامي كان أقل هذه النواحي أهمية، على حين كان الميراث البيزنطي أكثر أهمية ".(74) " أما فيما يتعلق بميراث حياة الرعي والتنقل فيذهب إلى أن العثمانيين احتفظوا بتصورهم الرعوي للحياة التي تستلزم قيادة ماهرة، وتنفيذ أوامر القائد بإخلاص، والاهتمام بتماسك المجموع الذي يضم الحيوانات التي توفر الطعام، والتي لابد من تدريب بعضها (الكلاب، الخيول، الجمال) على حراسة القطعان. وهم حين يغزون مناطق الاستقرار يعاملون سكانها كما لو كانوا قطعاناً بشرية، ويدربون عناصر

منتقاة منها على أعمال الحراسة. ويتمثل هذا في الانكشارية - أي عبيد السلطان - الذين من واجبهم الطاعة ".(75)

هناك رأي آخر قال به كل من **جب وبوون** مفاده أن الملامح الأساسية موروثة من النظام الفارسي إلى 1453. ثم جاء بعد ذلك تأثّر العثمانيين في مفهومهم للحكم بمفهوم الدولة التي أسقطوها - وهي الدولة البيزنطية.(76) وجاء رأي ثالث للمؤرخ التركي المعروف خليل إينالجيك يعتبر - من وجهة نظر المؤرخ د.عبدالغني عماد – أكثر تماسكا " .. يشير إلى أن السلطنة العثمانية كانت تقوم على مبادئ ونظم إدارة الدول التي قامت في الشرق الأوسط منذ قرون عديدة، فهي تهتم في المحل الأول بحماية السكان المستقرين الخاضعين لحكمها والاهتمام بشؤونهم الزراعية والتجارية .. ولا ينفي إينالجيك أن العناصر الرعوية في مناطق الحدود العثمانية قد لعبت دورا معينا، لكنه يؤكد أن الدولة سرعان ما تحولت إلى سلطنة إسلامية ... "(77)

لن أتعرض هنا إلى وصف بناء الدولة فقد اتضحت من خلال الدراسات المتعددة في الكتاب. سأكتفي هنا بالإشارة إلى ما أعتقد أنها إضافات أضافها العثمانيون مفهوما وتطبيقا؛ إذ أثبت العثمانيون قدرة غير مسبوقة في نجاحهم في تشكيل دولة إسلامية عاشت أطول عمر في التاريخ، وحصلت على أكبر مساحة، على قدرة النظام الإسلامي على الحياة. لقد نجحوا في ترسيخ مفهوم العدل (وهو مفهوم يختلف عن المفهوم اليوم) في المجتمع إذ لا تطول أعمار الدول إلا بحضارة وعدل.(78)

ماهي تلك الإضافات ؟

نجح العثمانيون في <u>نقل النظام من قيادة أفراد إلى قيادة مؤسسات</u>، لقد ركزت الدولة العثمانية على مبدأ الكفاءة أولا والولاء ثانيا. كان الموظف العثماني يتم إعداده في مدرسة أو مدارس موجودة في القصر السلطاني. القصر مقسم إلى ثلاثة أقسام : (1)الحريم ويعني مكان سكن عائلة السلطان وخادماتها، وهو جزء مستقل عن القصر؛(2) بيروت همايون (3) أندرون همايون والقسم الأخير عبارة عن جامعة أو مدرسة خاصة داخل القصر تدرّب كبار الموظفين. لقد ترتب على هذه الرؤية وتلك السياسة أن الدولة العثمانية كان بها في القرن 16 نسبة أعلى من الأشخاص المقتدرين (أطباء، معماريون، حرفيون ...) مما كان في أوروبا ومما صارت عليه في 1800.

أضافت الدولة العثمانية مفهوم الولاء للدولة بدل الولاء للعشيرة، كما كان الحال في الحضارة العربية الإسلامية. وابتعدت عن " النظام الاجتماعي ونمط الحياة الخاص ببدو السّهوب ".(79) لقد نجحت العائلة العثمانية المالكة في فك ارتباطها بأية قبيلة أو عصبية. هذا على الرغم من أن قادة منشئي الامبراطورية العثمانية كانوا بدوا رعاة، ويعرف القارئ الأهمية التي يوليها هؤلاء إلى رباط الدم. من هنا تعلم العالم وأوروبا الشرقية على يد الدولة العثمانية سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والملل، كان الخيط الذي يربط سكان الدولة يتمثل في القانون، وفي الولاء وفي حرية المعتقد والاختلاف لا في أنسابهم وطوائفهم.

أضاف العثمانيون مفهوم وتطبيقات الإحصاءات السكانية. لقد سجل لنا الرحالة جلبي (ولد في 1611/3/25) نتائج تعداد السكان لمدينة إسطنبول الذي أجري في 1638. ومع الإحصاءات السكانية برزت إحصاءات تخص المهن. أنظر هذه المعلومات نوردها على سبيل المثال لا الحصر :

1 - أجرة العامل عن عمل يوم كامل في عام 1554 = 6 أوقجات

2 - أجر المعماري عن عمل يوم كامل في عام 1554 = 12 أوقجة

3 - ثمن نقل حمل حصان للماء من العين الجارية (إذ لم يكن للصنابير وجود في ذلك الوقت) = 15 أوقجة.(80)

وأضافوا قبل ذلك مفهوم التوثيق، كتب د. محمد علي عامر من جامعة دمشق يقول " والإمبراطورية العثمانية بسلاطينها منذ تاريخ النشوء إلى مرحلة الانكماش والزوال، واحدة من أكبر الإمبراطوريات .... التي ظل التاريخ يعترف بها قسرا أو طواعية، وأكثرها تدوينا لكافة الأحداث الكثيرة والصغيرة منها ... وممّا لا شكَّ فيه أنّ هناك قسما كبيرا من الشعوب تنظر إلى الإمبراطورية العثمانية كذكرى مهملة في متحف التاريخ ولكنّها ذكرى عظيمة وخالدة إذا قيست بغيرها من الإمبراطوريات الأخرى، والتي لم تخلف وراءها إلاّ نحوتاً صخرية لحكامها خلدتهم كحكام، في حين أهملت القوة البشرية وطرق معاملتهم وتعاملها معهم وفيما بينهم.(81)

الفكر والثقافة :

كتب كارل بروكلمان يقول : " كانت حياة العثمانيين خلواً، أو تكاد، من الأصالة والإبداع .... "(82)

يشير هذا النص إلى قصور لدى بروكلمان أكثر من قصور لدى العثمانيين، والسّبب أن بروكلمان عندما كتب كتابه لم يكن معروفا من المخطوطات والوثائق العثمانية إلاّ النزر القليل ... من هنا قد يعذر القارئ بروكلمان. كيف يستقيم هذا المعنى ونحن نعرف أنّ العثمانيين أنشؤوا أول جامعة إسلامية لديهم على يد أورخان بن عثمان، أي في بداية تأسيس دولتهم، وأن محمد الفاتح أقام جامعة أخرى باسم جامعة اسطنبول ورد إنشاؤها في " وقفية محمد الفاتح لإنشاء جامعة إسطنبول "(83)

كيف يستقيم النص - نص بروكلمان – أمام عمل مؤلفين عثمانيين مثل مصنف في " كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ". جزءان : 1967 " لحاجي خليفة (1609_1657). وأعمال أوليا جلبي المتوفي في 1679. لقد حصر حاجي خليفة ما مجموعه 14500 عنوان كتاب في مختلف العلوم اختطها 9500 من الباحثين والعلماء العثمانيين(84)

هناك سبب آخر في قصور بروكلمان وغيره من الباحثين الغربيين ونظرتهم إلى الدولة العثمانية كان قد أشار إليها مؤرخون معاصرون مطلعون شملوا ألبرت حوراني من جامعة أكسفورد، وكمال كارباث من جامعة وسكونسون ماديسون، وأرنولد توينبي من جامعة لندن، وخليل إينالجيك ووليام ماكنيل من جامعة شيكاغو، وهي غلبة الجانب العسكري والخوف الأوروبي من الدولة العثمانية أحالها إلى مصدر رعب في نظر الأوروبيين.(85) وكان مؤرخ عصر الملكة إليزابيث (1558_1603) (ريتشارد نولز : Richard knolls) وصف الشعور الأوروبي العام تجاه الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد أوروبا، فكتب هذه الجملة المعبرة : "إن الامبراطورية العثمانية هي مصدر الرعب في العالم ".

لكن الخلل حدث وتعمّق عندما تبنى بعض الأتراك والعرب هذا الرأي وأكدوا عليه دون دليل. والسبب في ذلك واضح وجلي: ارتفاع صيحة الرؤية القومية التركية وكذلك العربية. حأول الأتراك التخلّص من الإرث العثماني وعادوا إلى التراث السابق لقيام الدولة العثمانية، وحاول العرب النظر بدونية إلى التراث العثماني وتحميله مسؤولية تأخرهم بل وتسليمهم إلى الغرب.

ما يهما هنا النظر بموضوعية - قدر الإمكان - إلى الجانب العلمي والثقافي في الحضارة الإسلامية زمن العثمانيين.

التاريخ :

يقول بروكلمان إن الأتراك تتلمذوا في التاريخ على يد الفرس(86) وأن محاولة تدوين التاريخ الوطني (العثماني) تدوينا منظما كان كتابا وضعه **أحمد عاشق باشا زاده** المتصوف على عهد السلطان بايزيد الأول، الكتاب عنوانه " تواريخ آل عثمان".

ومنذ القرن السادس عشر شرع الباب العالي نفسه في الاهتمام بكتابة التاريخ عن طريق تعيين مؤرخين رسميين من هؤلاء : خوجة سعد الدين، ونعيما، وراشد محمد راشد، وبجوي إبراهيم، وجلبي باشا عاصم أفندي، والمؤرخ أحمد وفيق باشا (1823 - 1891) المعروف بمصنفه " فذلكة تاريخ عثمان " _ مختصر التاريخ العثماني؛ كما ظهر مؤرخون مفكرون آخرون في السياسة وفي التاريخ السياسي والاقتصادي. من هؤلاء : شانيزاده عطا الله، قره جلبي زاده عبد العزيز، سلانيكي، خير الله أفندي، كاتب جلبي، جودت باشا، لطفي باشا، وأصحاب رسائل : رسالة قوانين آل عثمان، ورسالة قوجي بك (أوكوجو بي) ولائحة طرخونجي.(87) كان أول هؤلاء خوجة سعد الدين (1536_1599).(87 مكرر) وقد حمل كتابه عنوان " تاريخ التواريخ ". كان والده مصاحبا للسلطان سليم الأول (1512_1520). ولهذا فإن ما ذكره عن عهد هذا السلطان يحظى بأهمية استثنائية.(88)

جاء بعده بجوي إبراهيم أفندي (1574_1649) الذي كتب كتابا يحمل عنوان **تاريخ بجوي**، يتناول تاريخ الدولة العثمانية بين سنتي 1520 - 1648(89). أما صولاق زاده محمد جلبي (1590_1657) فقد كتب تاريخ الدولة العثمانية منذ تأسيسها حتى 1657م.(90) والمؤرخ سلانيكي مصطفى أفندي المتوفى في عام 1600م غطى مؤلفه تاريخ الدولة بين سنتي 1563_1592.(91) يأتي بعده المؤرخ المشهور مصطفى نعيما الحلبي (1655_1716) إذ كتب كتابا عنوانه " روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين " ويغطي الفترة 1591_1659 من تاريخ الدولة.(92) جاء بعده كتاب راشد محمد راشد المقوفي في (1723) يجعل اسمه، تاريخ راشد، ويتناول تاريخ الدولة بين سنتي (1660_1721).(93) أتى بعد ذلك تاريخ كوجك جلبي زاده اسماعيل عاصم أفندي (1685_1760) يغطي الفترة (1722_1728)(94) من تاريخ الدولة. بعد ذلك ظهر كتاب آخر تحت عنوان: محاسن الآثار وحقائق الأخبار، لأحمد واصف أفندي المتوفى في العام (1806) يتناول تاريخ الدولة بين سنتي (1752_ 1771). أتى بعد ذلك كتاب طبع في تسعة مجلدات ويغطي الفترة (1774_1826) للمؤرخ أحمد جودت باشا (1822_1895).(95) جاء بعد ذلك المؤرخ

نوري باشا (1824_1890) الذي يمثل تطورا نوعيا كبيرا، إذ استعان في كتابه بمجموعة كبيرة من الوثائق الرسمية العثمانية فضلا عن مؤلفات المؤرخين العثمانيين الذين سبقوه. لقد اهتم بالجوانب الحضارية، وقسّم عمر الدولة منذ ولادتها إلى زمانه إلى مراحل حدّد معالم كل مرحلة منها. " ومع أنه أرّخ للدولة العثمانية الا أنّ مؤلفه : نتائج الوقوعات " لايندرج ضمن المصادر التاريخية التقليدية بل هو كتاب أُعدّ وفق منهج علمي حديث.(96) إن الرؤية التاريخية الجديدة التي أطل بها مصطفى نوري باشا ... كان هذا المنهج مازال في مراحله الأولية الأولى في أوروبا."(97)

السياسة :

ظهر في الدّولة العثمانية عدد كبير ممن عناهم الشّأن العام العثماني فأسهموا في تشخيص المشاكل التي واجهتها الدولة واقترحوا الحلول التي رأوها ناجحة. وقبل أن نعطي نماذج من أولئك نؤكد على الملاحظات التالية : **الأولى :** الصّراحة والشجاعة التي تحلّى بها أولئك المفكرون في تشخيصهم للمشاكل واقتراحهم للحلول وسيرى القارئ الأمرين بوضوح. **الثانية :** شمولية التشخيص وشمولية المقترحات؛ كان المخاطَب الدولة كمؤسسات وليس السلاطين كأفراد بالنظر إليهم فوق مستوى البشر. **الثالثة :** الواقعية، واقعية التشخيص مدعومة بالأدلّة، بعيدا عن التنظير والنظر إلى ما يجب أن يكون. اخترنا عدداً من المفكرين يغطون تقريباً معظم زمن الدولة العثمانية هم : لطفي باشا، والمؤرخ مصطفى علي أفندي جيليولو (1541_1599)، وكوجو بي، وحسين ميزارفين، وساري محمد باشا. كتب لطفي باشا الذي شغل الصدر الأعظم للسلطان سليمان القانوني (1520_1566) كتابا بعنوان **تاريخ الإمبراطورية العثمانية.** كان كتاباً في السياسة أكثر منه كتاباً في الأحداث التاريخية. يؤكد لطفي باشا على ثمانية معايير يراها كفيلة بجعل الدولة بخير، ويرى أن من مسؤولية الصدر الأعظم القيام بها والسّهر عليها. ويستدل على ذلك من دراسة عميقة لتاريخ الدولة من تأسيسها على يد الأمير عثمان حتى زمنه عندما تقاعد من الصدارة العظمى زمن السلطان سليمان. أما عن تلك المعايير فنعددها على النحو التالي : 1/ تغليب الهدف العام على الهدف الشخصي 2/ السهر على أن حقوق ملكية الأفراد محترمة وتبقى كذلك 3/ " إن ضم ملك الناس إلى ملك الحاكم إشارة على انحطاط الدولة " 4/ الفساد والرشوة داءان بدون دواء 5/

اكتفاء الصدر الأعظم بأجرته فهي كافية (2.5 مليون أوقجة) 6/ اهتمام الصدر الأعظم بتكاليف المعيشة : " التحكم في الأسعار مسؤولية عامة وهي مهمة جداً ..." 7/ الكفاءة في التعيينات ثم أخيراً 8/ الحرص على أن يكون الدخل أكثر من المصروفات.

أما المؤرخ مصطفى علي أفندي جيليولو فقد قدّم كتاباً إلى السلطان مراد الثالث عنوانه " مفاخر النفائس في كفاية المجالس ". لقد شخص المؤلف مشاكل الدولة ولخصّها في عامل واحد : بذخ الطبقة الحاكمة، وبعد ذلك بأربعين سنة تقريباً قدم كوجوبي وكان موظفا عثمانيا كتاباً للسلطان مراد الرابع (1623_1640) في عام 1630، محللاً الأسباب التي أدت إلى ضعف قوة سلطان الدولة العثمانية منذ زمن السلطان سليمان القانوني (1520_1566). " يصف كوجو بي في تسعة عشر فصلاً، بشكل مفصّل وبصراحة مذهلة أسباب فقر وضعف الدولة العثمانية المادي والمعنوي " لماذا وقع هذا الضعف ؟ يقول كوجو بي إن هناك أسبابا تقف وراء ذلك وهي: 1/ انسحاب السلاطين منذ زمن سليمان من الإشراف على شؤون الدولة. 2/ اختيار السلاطين لصدور عظام ليس وفق الكفاية والتسلسل الوظيفي عبر السلم الإداري.3/ الوساطة والتعيينات في قطاع الجيش.4/ الفساد المالي عن طريق استحواذ الوزراء والمتنفذين على أراضي الدولة وتعويض الفاقد من دخلها إلى الخزينة برفع ضرائب على الفلاحين. أما عن علاج الأمر فيراه كوجو بي في سلطان قوي (مثل السلطان سليم أو السلطان سليمان) على حد قوله.

بعد ذلك بثلاثة وعشرين عاماً كتب مفكر آخر سبق أن أشرنا إليه هو **حاجي خليفة** مقالة صغيرة عنوانها " دستور العمل لإصلاح الخلل " عن أسباب الأزمات المالية (العثمانية). وقد عيّن الأسباب :1/ السلاطين الأوائل حموا الفلاحين من القهر والاستغلال، ولذلك لم تنهر قرية واحدة. في المرحلة الأخرى، فقد بعض الفلاحين عيشهم فهربوا من القرى إلى المدن. 2/ كلما كان الجيش مدرّباً تدريبا راقيا وصغير الحجم كان جيدا، ويصبح مضرا إذا كبر حجمه وزاد عدده. ويعطي عدد أفراد الجيش العثماني والمبالغ المصروفة المؤشرات الآتية:

" عدد الجنود المدفوعة رواتبهم :

السنة	العدد	مبالغ رواتبهم
1563_1562	41479	122,300,000
1567_1566	48316	126,400,000
1641_1640	95257	263,100,000

3/ الخزينة : عندما يكون الفلاحون واقعين تحت القهر تصبح الخزينة خالية.

أما عن علامات الضعف والسقوط في الجسم الاجتماعي فهي : الترف والرفاهية والتنعّم والتّفاخر والتّباهي وانتشار الألقاب. ويضيف أن العلاج لا يزال سهلاً وممكناً مرهون في سلطان قوي؛ أي أن علاج هذه المشاكل يأتي من رجل السيف.

في عام 1669 ظهر مفكر آخر كتب مذكرة تشخّص المشاكل بنفس العنف وبذات الصراحة، اسمه حسين ميزارقين. لكنه أضاف في مقترحاته حلوله الهيئة الإسلامية (أهل العلم) لعدم سهرها بشكل كاف في تطبيق الشريعة الإسلامية كما كانت تطبق زمن السلاطين الأوائل على حد قوله. أخيراً جاء مفكر آخر باسم ساري محمد باشا كتب مذكرة في عام 1703 بعنوان " نصائح الوزراء الأمراء ". وعلى الرغم مما تبدو عليه المذكرة، فإنها عميقة وواقعية استند في وضع النصائح على تلك السياسات الماضية التي نجحت. أما المشاكل اليوم (1703) فإن الإصلاح فيها " لا يمكن أن يكون إلاّ جذريّا ".(97 مكرر)

التربية والفكر التربوي:

عل عكس ما يقوله بعض المؤرخين فإن العثمانيين أغنوا الحضارة الإسلامية بالثقافة خاصة بالفكر التربوي. هناك عشرات المفكرين التربويين العثمانيين الذين أسهموا بدورهم في هذا المجال. من بين هؤلاء عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصلح الدين مصطفى الشهير بطاش.ك.زاده. كان الرجل ينتمي إلى عائلة من العلماء ويقيم في قرية طاش كبرى في بلاد الأناضول (آسيا الصغرى)عاش في الفترة (1495_1561).(98) **يعتبره بعض الباحثين من كبار الكتاب الكلاسيكيين في الفكر التربوي،**(99) **" وتصنيفه ... للعلوم المختلفة من أكمل التصانيف التي وضعها علماء العرب والمسلمون خلال فترة ازدهار العلوم الحضارة."**(100)

يعاب على طاش زاده أنه – في ضوء الفكر التربوي الحديث – أغفل " تربية الهامشي أو المظلوم و اللامحظوظ في المجتمع (المرأة، الكثرة من الشعب، الدهمائي، الفقير، المعوّق .....الخ) ذلك أن النظام التربوي الذي يطرحه ط.ك زاده غير مشتمل على قاعدة عريضة، والأهم أيضا أنه نظام غير متمركز على العمل، والعامل المادي، أو على اكتساب المهنة وتحقيق النفع والدخل المقبول ".(101)

كانت الركائز الكبرى للخطاب التربوي الإسلامي : 1/ التشديد على أن التعليم فرض عين، أي أنه إلزامي؛ 2/ التشديد على استمرارية التّعلم الذي ندرسها اليوم تحت اسم " التربية المستدامة " 3/العلم للجميع فلا يُسمح بمنعه أو احتكاره ... لقد أعاد طاش زاده الإنتاج ولم يأت بجديد أو أنه لم يطوّر العمارة التي أشادها أسلافنا كالقابسي والغزالى وابن جماعة والسمعاني ... ويلاحظ أنه يكرر أحيانا الامثلة والشواهد والاقوال."(102)

بقي القول أن خصائص الفكر التربوي و الأنساق التربوية آنذاك يمكن تمييزها بالشمولية والاتّساع. ويغلب ما هو نقلي، وخطابي ومنبري. كما أنها توحيدية الهدف تقصد " إلى تقديم أناس متشابهين ونظر متشابهة، وقيم ثابتة واحدة وطرائق متماثلة في المعالجة والتقييم والوجود ... لا تلقي تشديدا على العمل، ولا على معالجة الواقع، ورد التحدّيات، فالمطلوب هنا هو العلم للعلم. وبذلك فإن المهنة أو العمل اليدوي، غير أساسية. "(103)

<u>الاقتصـــاد :</u>

كان للعثمانيين إضافات في الاقتصاد. <u>أولا</u> ووفقا لإفادة المؤرخ المعروف عيساوي، يجب التنبيه إلى أنه حتى القرن التاسع عشر فإن العنصر الأهم في الإنتاج كان العمال؛ الأرض متوفرة في الدولة العثمانية وفي أوروبا، ولأن رأس المال لعب دوراً ثانوياً وأخذ شكلاً في مباني للسكن وفي السفن وفي المخازن.(104) على مستوى الفكر، فإن الآراء التي حكمت الدولة العثمانية في مجال الاقتصاد، أي العقل الاقتصادي العثماني، مرتبطة بالمفهوم الأساسي للدولة والمجتمع. لقد نادى بأن الهدف الأساسي والنهائي للدولة هو تقوية وتوسيع سلطة الحاكم، وأن الطريقة الوحيدة لعمل كل ذلك هو الحصول على مصادر دخل غنية. ويعتمد كل هذا على الظروف والأحوال التي تجعل الطبقات المنتجة مزدهرة وثرية. لذا فإن وظيفة الدولة الأساسية كانت فرض أو خلق تلك الظروف أو الأحوال.

المجتمع وفق هذه الفلسفة – مقسم إلى طبقة حاكم لا علاقة لها بالإنتاج. ومن ثم لا تدفع أي ضريبة، ورعايا ينتجون ويدفعون الضرائب. وهؤلاء الرعايا مقسمون إلى سكان في المدن يعملون في التجارة وفي الصناعة وإلى فلاحين يعملون في الزراعة. لقد ساعد اعتقاد في الدولة العثمانية – وفي دولة منطقة الوطن العربي وإيران – بأن سلام وازدهار وغنى الدول يعتمد على المحافظة على أفراد أو أعضاء كل طبقة في مكانهم. لقد كان مثل هذا المفهوم الخاص بالدولة والمجتمع مسيطراً وسائدا في عقول الكتاب الإداريين (في دول المنطقة) الذين كانوا يصيغون كل الإجراءات الواجب اتخاذها. نادى هذا المفهوم باقتصاد كان الهدف النهائي له توسيع مداخيل الدولة إلى الحد الممكن بدون إضعاف أو إفساد رفاهية الرعايا والمحافظة على التنظيم التقليدي للمجتمع بدون تغيير. وعند طريق تطوير مراكز وطرق تجارية، وتشجيع الناس لمد وزيادة مساحة الأرض الصالحة في الدولة، والتجارة الدولية عبر ممتلكاتها، تكون الدولة قد مارست وظائفها الاقتصادية الأساسية في الإمبراطورية، ولكن في كل ذلك، كانت مصالح الدولة المالية والسياسية دائما المسيطرة ولم يكن في إمكان الإداري العثماني مطلقا إدراك أسس الاقتصاد الرأسمالي للعصر الحديث المبني على تجارة ماركنتلية (أي تجارة خارجية تعتمد على الاستيراد والتصدير)؛ وسط وضمن النظام الاجتماعي والسياسي الذي نعيش فيه، بينما جاءت أوروبا المسلحة بمعرفة وبنظم مثل هذا النظام، بتحدي إمبراطورية الشرق الأوسط العثمانية.

لكن في مجال التطبيق أنجزت الدولة عدة أشياء اعتبرها إضافات. الأول، أن الدولة وضعت حدّا فاصلا بين ما هو للحاكم وما للدولة. هذه إضافة جوهرية ونقلة نوعية عما كان سائدا في الدول الإسلامية قبل قيام الدولة العثمانية. يترتب على ذلك أن البذخ الذي قيل إن السلاطين العثمانيين كانوا يعيشونه صار مشكوكا فيه. فالقصر العثماني (طوب قابي) متواضع جدّا أمام أي قصر ملك أوروبي في حينه. كان القصر مقسما إلى ثلاثة أقسام، ويمثل القصر حيث يعيش السلطان وحريمه جزءا منه فقط. الثاني، وحدّدت الدولة العثمانية المقاييس والمكاييل في العاصمة وفي المدن الإسلامية العثمانية الكبيرة.

لم تسمح الدولة بالاحتكار في الغذاء وفي الحرف، فحافظت على أسعار ثابتة مستقرة. وزاد من هذا الاستقرار أن الدولة العثمانية لم تكن تشجع التصدير وشجعت بدلا عنه الاستيراد، انطلاقا من فكرة الاهتمام بالرّعية؛ من هنا غابت كما – سبق

القول - عن الاقتصاد واحدة من أهم أسس الاقتصاد الرأسمالي الحديث المبني على تجارة ماركانتيليه (أي تجارة خارجية تعتمد على الاستيراد والتصدير). كان كتاب القرن السابع عشر الأوروبيون يرددون : 1/ أن من يحكم المحيط يحكم تجارة العالم. 2/ وأن من يحكم تجارة العالم يحكم ثروة العالم. 3/ وأن من يسيطر على ثروة العالم يحكم العالم بذاته. 4/ ومن ثم فإن " ميزان القوة " مرهون " بميزان التجارة ". لم يدرك العثمانيون هذا التسلسل وظلوا مخلصين لفكرة تشجيع الاستيراد دون التصدير. أضافت الدولة تطبيقات مفهوم الحصار الاقتصادي من طرف الدولة. قد يكون ذلك لتحفيز صناعة محلية أو تجارة أو تنفيذ نسق اقتصادي معين مثل منع تصدير المعادن الثمينة والسماح بجلبها، ومثل ما حدث في الحرب ضد إيران؛ لقد منعت الدولة العثمانية تصدير الذهب والفضة وشجّعت على استيراده. واستخدمت الاقتصاد في السياسة لتقريب الأصدقاء تخويف الأعداء.

هذا الاستخدام كان وراء الامتيازات. فالأخيرة كانت مدفوعة بتشجيع التجارة وأُعطيت بتوقعات سياسية ومالية واقتصادية، أهمها الحصول على حليف سياسي، والحصول على سلع نادرة مثل الملابس الصوفية والقصدير والفولاذ والذهب والفضة.(105)

أضافت الدولة العثمانية " مفهوم الميزانيات ". ظهرت هذه الرؤية أول مرة في لائحة طرخونجي، وهي لائحة الميزانيات التي أعدّها الصدر الأعظم طرخونجي أحمد باشا عام 1653، وكانت صدارته تزامنت مع دور اتّسم بأزمة مالية حادّة وتمرد مستمر من قبل جنود القابي قولي. وسعى أحمد إلى اتخاذ جملة من الإجراءات من شأنها تقليص النفقات وزيادة الموارد، ثم قدم لائحة تبيّن موارد الدولة ونفقاتها. جاءت كذلك لدى كوجي بي. (105مكرر)

<u>الأدب والشعر :</u>

كتب بروكلمان (ص 483) إن إبداعات العثمانيين في الأدب والشعر ضئيلة. لكن نظرةً فاحصةً توصلنا إلى رأي مغاير. نلاحظ أولاً أن كثيراً من السلاطين كانوا شعراء. يخبرنا بذلك د.حسين مجيب المصري، المتخصص في الأدب التركي في كتاب صدر له في القاهرة عام 1951 تحت عنوان " **تاريخ الأدب التركي** ".كان السلطان مراد الثاني (1402_1451) أول سلاطين آل عثمان الذين نظموا الشعر. وكان يحمي حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة التركية.(106) ومن بعده

ابنه السلطان محمد الثاني الذي عرف بالفاتح (1451_1481) فقد كان أديبا وشاعرا مجيدا عرف بأبي الخيرات لأعماله الرائعة في تدشينه لدور العلم ودور العبادة. كان الفاتح راعيا لنهضة أدبية؛ قيل أنه كان يقرّب الشعراء والعلماء ويستقدمهم من كل مكان. كان يجيد عدّة لغات بما في ذلك اللغة العربية، نشرت أعماله الشعرية في عام 1904 في برلين من قبل المستشرق الألماني ج. جاكوب.(107) وابنه السلطان بايزيد الثاني شاعر هو الآخر. (108)

وكذلك الحال بالنسبة للسلطان سليم الأول. كان شاعراً من عادته اصطحاب الشعراء معه في حملاته. نظم السلطان سليم شعره بالفارسية. ووفقا لرأي الأستاذ **نهاد سامي**، مؤرخ الأدب التركي المعروف وصاحب كتاب : **تاريخ الأدب التركي المصور**، فإن المستشرق الألماني **باول هورن** قام بطباعة ديوان السلطان سليم الأول الذي يضم القصائد التي نظمها باللغة الفارسية في طبعة أنيقة بأمر من الإمبراطور الألماني غليوم لإهدائه إلى السلطان عبد الحميد الثاني عام 1904 رمز للصداقة العثمانية الألمانية.(109)

ترجم ديوان السلطان سليم الأول من الفارسية إلى التركية ونشر في اسطنبول عام 1946. يُظهر الديوان أنه كان شاعرا رقيقا. " وقد عبّر عن طبيعته في بيت شعر بالفارسية قال فيه : إن الأسود لترعدها سطوتي فما لعيون الظبى تضويني وتصميني "(110)

ابنه السلطان سليمان القانوني كان شاعرا كذلك. أسمى نفسه في أشعاره باسم " محبّى " ويغلب على أشعاره رقة الأحاسيس ووضوح الفكر. وديوانه باللغة التركية مطبوع باسم " ديوان محبّى ". ومع ذلك فله نظم باللغة الفارسية وشعره فيه ميزة وضوح المعنى وقلّة العناية بزخارف الألفاظ، قال السلطان شعراً جميلاً في زوجته التي أحبها حبّاً ملك عليه فؤاده، وقد قام د.مجيب المصري بترجمة بعض منه نستعيره هنا كما ورد لدى د.حرب.(111)

" لما صوّرك مصوّر القدرة فأبدع تصويرك، حار فيك كل وهم، وهام فيك كل خيال. وإذا خطرت في البستان، فلا قدّ للسرو بجانب قدّك. وإن حمر الورود لتنشق حسدا اذا تحركت شفتاك بكلمة. لقد خلبت لبّى، فبالله كيف أصيب جميل صفاتك ".

لم يكن هؤلاء السلاطين الشعراء الوحيدين. أردنا من تطرقنا إلى إنتاجهم القول بأن الدولة العثمانية كانت ترعى نهضة أدبية طوال تاريخها. وكانت أدوات التعبير في هذه النهضة اللغات العربية والفارسية والتركية. ومن نتائج تلك النهضة عشرات الشعراء والأدباء والمترجمين والمفكرين. كان بين هؤلاء الشاعر الأعظم عبد الحق حامد، والشاعر محمد عاكف (1873 - 1836) الملقب بشاعر الإسلام مؤلف نشيد تركيا ومترجم إلى اللغة التركية معاني القرآن الكريم. توفي محمد عاكف في مصر التي هاجر إليها امتعاضا من مصطفى كمال أتاتورك وأرائه.(112)

وكان من نتائج هذه النهضة مفكرون كثر.(113) من هؤلاء شيخ الإسلام **مصطفى صبري** الذي كان ممثلا لمنطقته **توقاد** في مجلس المبعوثان العثماني (1908) وكان في هذه الفترة رئيسا لتحرير مجلة " بيان الحق " وهي مجلة إسلامية. صار شيخا للإسلام في (عام 1919) ثم رئيسا للوزارة أثناء مؤتمر باريس. تركزت آراؤه في : استنهاض الأمة الإسلامية لإزالة كل مظاهر العلمانية والتّغريب الحضاري والخلقي؛ والتمسك بطريق أهل السنة والجماعة؛ وإعادة الخلافة الإسلامية.

وكان من نتائجها أيضا الشيخ عاطف الإسكيليبي (1876_1925) الذي كان يكتب باللغة التركية فقط وكان عالماً متبحرا. كما ذكر أحمد نعيم بابان زاده، الذي عمل أستاذا بالجامعة وكان يجيد اللغة العربية إجادته للغة العثمانية. ثم كان بديع الزمان سعيد النورسي (1876 _ ؟) الذي انكب على دراسة المشكلات التي تعترض تقدم المسلمين، ودعا إلى أن يكون الإسلام هو الخلاص ورفع المدنية الغربية، ثم نذكر الإمام المجدد سليمان حلمي (1888_1959).(114)

الطـــب :

شملت الدولة كذلك على مدارس طبية كبرى ومستشفيات أخرى إضافة إلى مستشفى الأمراض العقلية المشار إليه.(115) ويجعل مؤلفا أطلس الحضارة الإسلامية المدارس الطبية الكبرى والمستشفيات في الدولة العثمانية على النحو المبين في الجدول التالي :

" جدول بالمدارس الطبية الكبرى والمستشفيات في الدولة العثمـــانيـــة "

المدينة	سنة التأسيس	المؤسس
قيسرى	1205	السلطانة نصيبة خاتون وشقيقها
شيواس	1217	السلطان عز الدين قيقأوس
أمازية	1308	عنبر بن عبدالله
بورصة	1400	بايزيد يلدرم
إسطنبول	1470	مستشفى فاتح
أدرنة	1488	بايزيد الثاني
مانيسا	1535	حفصة، قرينة سليم الأول
إسطنبول	1539	خونم، قرينة سليمان القانوني
إسطنبول	1557	سليمان القانوني
إسطنبول	1609	سلطان أحمد، أحمد الأول

ولم تكن هذه المدارس إلاّ لتدل على تراث قديم من المعرفة والعلم لدى العثمانيين. هذا يناقض في حقيقة الحال ما يدّعيه بعض المستشرقين من أنّ " حياة العثمانيين خلوٌ أو تكاد من الأصالة والإبداع ".(116)

ويكتفي هذا المستشرق بالقول إن العثمانيين تتلمذوا في العلوم على يد العرب، وتتلمذوا في التاريخ على يد الفرس. لقد أثبت البحث الحديث أن السلطان أورخان " أنشأ في عام 1327 أول جامعة (مدرسة) وعهد بإدارتها إلى داوود القيصري، أحد العلماء الذين تلقوا علومهم في مصر ".(117) **وبالإضافة إلى داوود القيصري اشتهر كثيرون في علوم الطب والصيدلة مثل الشيخ آق شمس الدين (1389_1459). كان الرجل عالما مُعلّما للسلطان محمد الفاتح، عالم نباتات وطب وصيدلة. كان هناك الطبيب داوود الأنطاكي المتوفى في العام 1600 والطبيب طالح السّلوم (توفى 1670) من مدينة حلب استدعي إلى الآستانة من قبل السلطان وصار رئيس الأطباء، وهو من أوائل من ترجم عن الغرب في العلوم الطبية مثل كتاب : " الطب الكيميائي الجديد " ونظريات باراسيلسور الذي يعد أحد أهم أعلام النهضة الأوروبية (1493 _ 1541).**(118)

وقد تطورت الخدمات الطبية. يقول السيد كرافت ابينج في كتابه: علم الأمراض العقلية إن الإنسانية تعلمت معالجة المصابين بالأمراض العقلية من العثمانيين،

ويقول الرحالة إيليا جلبي زاده، الذي ولد في 1611/3/25 في رحلته المطبوعة في عشرة مجلدات : إن في اسطنبول مستشفى للأمراض العقلية بها (70 حجرة) و(80 قبّة) و (200 خادم) وكبير الأطباء فيها بدرجة مدرس عام (وهذه الدرجة تعادل في جامعات اليوم درجة أستاذ كرسي).

ولم يقتصر الأمر على العاصمة إذ تفيدنا الأبحاث بوجود " أهم المؤسسات الاستشفائية المجانية التي شيدت لخدمة الفقراء والمساكين وعلاجهم مجاناً منذ سنة 1631 (وعاش حتى العام 1956) هو المستشفى الصادقي الذي أسسته الأميرة عزيزة العثمانية (في تونس)...."(120)

وإيليا جلبي زاده هذا لا يتحدث من فراغ، فهو رحّالة عثماني قضى 44 عاماً في الرحلة زار خلالها مناطق كثيرة من العالم في كل من آسيا وإفريقيا وأوروبا. بدأ رحلته من مدينة اسطنبول فزار تركيا وروسيا وألبانيا وبلغاريا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وبولندة وإيران والعراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين والسعودية ومصر والسودان والحبشة والصومال وجيبوتي. تُرجمت رحلته إلى 9 لغات وطبعت في 10 مجلدات تحت عنوان " تاريخ سياح " أو سياحتنامه؛ وتوصف كتاباته بالدقة مدعمة بالأرقام، مثل أرقام الإحصاء الذي أجري لمدينة إسطنبول في العام 1638. توفي إيليا جلبي في عام 1679. يقول عنه المستشرق موردنمان (1852 - 1932) وهو من خيرة العارفين لتاريخ الدولة العثمانية : " يجب الاعتراف بأن كتاب الرحالة العثماني ذخيرة لا تنفذ في جميع ما يمس الحياة الاجتماعية والأدب الشعبي والجغرافيا وأنه يعرض كل هذا في كتابه باسلوب يمتاز بالبساطة والحيوية معاً ".(119)

العمارة :

" العمارة " مفهوم عثماني يعني مركّب يتكون كل واحد منه من مؤسسات دينية - مثل المسجد والمدرسة والكتّاب - ونزل للمسافرين و تكيّة للفقراء ومستشفى ومؤسسات تجارية مثل محطات القوافل وحانات وأسواق مغطاة، لعب دورا في إعادة بناء المدن العثمانية. لقد أبدع العثمانيون في فن العمارة. ظهرت لديهم أسماء لمعماريين كثر مبدعين. من هؤلاء : المعماري خير الدين، والمعماري داوود آغا والمعماري يعقوب شاه والمعماري قره شعبان آغا والمعماري عجم علي.(121) لكن أعظمهم جميعا

كان المعماري سنان (1490_1599). لقد كان أعظم وأبرز الذين كونتهم الثقافة الإسلامية العثمانية. لقبته الأمة العثمانية سنان الكبير، ورائد معماري العالم. كتب صاحب " تاريخ الشعوب الإسلامية،(122) أن سنان أنشأ بأمر من السلطان : 81 جامعاً كبيرا و 52 جامعا صغيرا و 55 مدرسة و 07 معاهد لدراسة القرآن و 17 مطعما عموميا و 03 مستشفيات و 07 كتاتيب لحفظ القرآن و 07 جسور و 33 قصرا و 18 خانة و 05 متاحف و 33 حماما و 17 ضريحا أو قبة.

كتب سنان كتاب " تذكرة الأبنية "، وهو كتاب يحتوي على 441 عملا في أنحاء الدولة العثمانية منها جامع السّليمانية بإسطنبول وجامع شهرزاد، وجامع السّليمانية في مدينة أدرنة. كتب آرنست دييز – العالم المشهور في تاريخ العمارة – عن هذا الجامع الأخير: " إن مزايا تأثير المكان والحجم والارتفاع والتّجمع والضوء يجعل من جامع السليمانية أروع الآثار المعمارية في العالم أجمع ".(123) كان سنان قد اشترك في عدد من الحروب، إذ كان عسكريا فنيا تولى وظيفة " كبير معماري الخاصة السلطانية " من هنا :كان مسؤولا عن الأعمال العمرانية في ... إسطنبول، وعن أصلاح وتعمير وترميم وشق شوارع وبناء أرصفة وقنوات للمياه. كما كان مكلفا بمراقبة أعمال البناء، كما أسندت إليه صلاحية هدم الأبنية المخالفة للنظام، والإشراف على أبنية القلاع ".(124) من أهم أعماله نقل الماء إلى اسطنبول عن طريق عيون الماء ؛ وقد قام بذلك " بطريق علم الهندسة " فصار كل حي يستمد مياهه مباشرة من منابع الماء (لاحظ أنه لم يكن للصنابير وجود ذلك الوقت).(125)

وفي الختام، فإن مساهمة العثمانيين الحضارية أكبر مما أشار إليه المؤرخون الأوروبيون وأخذ برأيهم معظم المؤرخين العرب خاصة الذين كتبوا في الفترة (1914 - 1970) وبعض المؤرخين الأتراك. لا نحتاج إلى الحديث عن الدوافع وراء الرؤية الغربية، إذ تكفلت أكثر من دراسة في هذا البحث بالرد عليها. المساهمة العثمانية مكملة لمساهمة العرب في الحضارة الإسلامية، مضافا إليها إبتكارات في الجغرافيا، وفي السلاح، وفي تطبيق مفهوم المواطنة وفق الوظيفة (بدل النّسب) وفي وضع خط فاصل بين ما للدولة وما للحاكم من مال، وفي الاهتمام بالتوثيق، وفي وضع الميزانيات والإحصائيات.

لكن الدولة لم تفطن لمتغيرات اقتصادية وفكرية جرّت عليها سلبيات قادتها إلى الضعف فالتفكك ثم الانحلال فالسقوط. في الاقتصاد حمّلت الدولة القطاع المنتج

ضرائب فادحة، فهرب الفلاح من الأرض وقلَّ من ثم الإنتاج. وظلت الدولة متشبثة بفكرة تشجيع الاستيراد وعرقلة التّصدير، الأمر الذي لم يجعلها تفطن إلى مفهوم المركانتلزم وتأثيراته عليها، فسبقتها الدول التي أخذت بهذا المبدأ الجديد. فكريا لم تفطن الدولة كذلك إلى أن قاعدة الدين واقتصاد الإقطاع، وحرية العبادة – وهي مفاهيم قامت عليها الدولة، لم تعد صالحة للعصر الحديث الذي برز فيه إنحلال وتفسّح الإقطاع وإحلال الرأسمالية بدلاً منه، ومع الرأسمالية برزت العلمانية وباقي مفاهيم ما صار يعرف بالطبقة الوسطى.

" الهوامــش "

1. أحمد مختار العبادي، في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية . الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 8.
2. لبيب عبد الستار، الحضارات. بيروت : دار المشرق، ط 9، 1982. اي.اتش. غومبرتش، مختصر تاريخ العالم. ترجمة ابتهال الخطيب. الكويت : سلسلة عالم المعرفة رقم 400 مايو 2013. ص 37، 46، 47، 48.
3. لبيب، ص 34. مختصر تاريخ العالم، ص 45 - 52 ، في شأن حضارات ما بين النهرين، أنظر : اطلس تاريخ الحضارات: اطلس التاريخ القديم. سوريا ولبنان : المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، توزيع دار الشرق العربي للطباعة والنشر، ط 2، 2005، ص 6 -54.
4. لبيب، ص 42.
5. المصدر السابق، ص 42.
6. مختصر تاريخ العالم، ص 48.
7. في شأن الحضارة المصرية القديمة، انظر المصدر السابق، ص 37 -44.
8. مختصر تاريخ العالم، ص 46.
9. لبيب،ص 18
10. مختصر تاريخ العالم، ص 43.
11. لبيب، 90.
12. مختصر تاريخ العام، ص 59 - 60 .
13. لبيب، ص 91

14 -21. لبيب : الصفحات : 90، 15 و 126 ، 94 ، 94 ، 98 ، 100 ، 100 ، 136 ، 184 و 208 - 214. مختصر تاريخ العالم ، ص 123 - 132.

22. ايناس حسني ، التلامس الحضاري الإسلامي الأوروبي. الكويت : سلله عالم المعرفة رقم 366 اغسطس 2009 ص 42 ، 49.

23. يوسف مروة " وجها لوجه : البروفيسور يوسف مروة ومحمد رياح " العربي (الكويت) العدد 519 فبراير 2002 ، ص 69.

24. ايناس ، ص 45

25. ايناس ، ص 45

26. ايناس ، ص 46

27. المصدر السابق ، ص 27

28. المصدر نفسه ، ص 47

29. المصدر نفسه ، ص 265

30. المصدر نفسه ، ص 265

31. المصدر نفسه ، ص 268

32. سيد رضوان علي، العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية. الرياض : دار المريخ المستثمرين ، د.ت ص 150.

33. البرت حوراني، ص 61

34. ابراهيم الداقوقي " التأثير المتبادل بين اللغتين العربية والتركية في العصر العثماني " في الحياة الاجتماعية في الولايات العثمانية. زغوان : منشورات سيرمدي، 1988. ص 346 65

34مكرر. عبد العزيز الشنأوي، ج 4 ، ص 1861

35. بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة لبية فارس و منير البعلبكي. بيروت: دار العلم للملايين ط 6 ، 1974. _____ ص 468.

36. اللّواء جمال محفوظ " فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام " موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ح 3 ط . بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987. ص 59 – 60.

37. جمال محفوظ، ص 63 .

38. جمال محفوظ، ص 66 – 67.

39. جمال محفوظ، ص 67.

40. جمال محفوظ، ص 67 – 68.

41. نيكولاي ايفانوف، الفتح العثماني للبلاد العربية. بيروت: الفاراي، 1988، ص 263.

42. ايفانوف، ص 263.

43. عبد الحكيم رافق . العرب والعثمانيون 1516 – 1916. ط ا دمشق: مكتب اطلس، 1974. ص 31 د. مصطفى جواد

44. " الناصر لدين الله العباسي " مجلة العربي (الكويت) العدد 124 مارس 1969 ص 64، رافق

45. مصطفى جواد، " الناصر لدين الله العباسي "، ص 64.

46. عبد العزيز محمد الشنأوي ص 60

47. عبد الحسين مهدي الرحم، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية طرابلس : الجامعة المفتوحة 1995، ص 129.

48. المصدر السابق، ص 129 – 130.

49. عبد العزيز الشنأوي، ح ا ص 60 ، 61.

50. رافق ، ص 32 ، 33.

51. محمد فؤادي كوبرلي ص 159 – 162 كما وردت لدى الشنأوي ج ا ، ص 62.

52. ايفانوف ، ص 263 ، 264.

53. ايفانوف ، ص 264 ، 265.

54. المصدر السابق ، ص 6

55. بروكلمان ، ص 413 ، 414.

56. بروكلمان ، 415.

57. بروكلمان ، ص 414.

58. بروكلمان ، ص 414 ، 415.

59. عبدالغني عماد ، السلطة قي بلاد الشام في القرن الثامن عشر. بيرت: دار النفائس، ط ا ، 1993 ، ص 106.

60. محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة. دمشق: دار القلم ، ط 3 1999 ص 77

61. المصدر السابق ، ص 78

62. محمد حرب ، ص 472.

63. الصدر السابق ، ص 472.

64. محمد حرب ، ص 512 – 513.

65. محمد حرب ، ص 474.

65 مكرر. المصدر نفسه ، ص 512 – 513.

66. اسماعيل راجي الفاروقي و لوس لمياء الفاروقي، اطلس الحضارة الإسلامية . الرياض. مكتبة العبيكان و المعهد العال للفكر الإنساني 1998. ص 209

67. بروكلمان ، ص 408.

68. محمد حرب ، ص 85.

69. محمد حرب ، ص 27.

70. في شأن عالمية – الدولة العثمانية، أنظر اعمال المؤرخين : ارنولد توينبي، ووليام ماكنيل ، وخليل اينالجيك ، والبرت حوراني ، وكمال كاربات ، وتشارلز عيسأوي في مؤتمر جامعة ويسكونسون – ماديسون عام 1971 والذي طبقت اعماله في :

k. karpat. The Ottoman State and its Place in History leiden: E.T Brile, 1974

71. اينالجيك ، مؤتمر جامعة ويسكونسن ، ص 51 – 60

72. عبد العزيز الشنواي ، ج 1 ص 128

73. المصدرالسابق .

74. عبد الغني عماد، ص 33.

75. المصدر نفسه ،

76. المصدر السابق ، ص 33 – 34.

77. المصدر السابق، ص 34.

78. محمد حرب ، ص 7.

79. وليام ماكنيل ، مؤتمر جامعو وسكونسن ، ص 37.

80. محمد حرب ، ص 246 – 247.

81. " وثائق من إلىمن : الارشيف العثماني باسطنبول " المجلة العربية للدراسات العثمانية، ص 387.

82. بروكلمان ، ص 482.

83. محمد حرب ، ص 17، 104. انظر كذلك : صلاح الدين عثمان هاشم " كاتب جلبي بن عبدالله المشهور باسم حاجي خليفة : حياته واثاره العلمية ". العلاقات العربية التركية الذي عقد في مدينة طرابلس في ليبيا ديسمبر 1982. تحرير: عقيل محمد عقيل البربار. طرابلس مركز دراسة جهاد الليبين ضد الغزو الايطإلى، 1988. ط ا ، ص 244 – 312. المعلومات من ص 245.

84. المصدر السابق .

85. البرت حوراني، مؤتمر جامعة وسكونسن.

86. بروكلمان ، ص 482.

87. المصدر السابق ، 483.

87مكرر. فاضل بيات ، دراسات في تاريخ العرب ، ص 95، 128 – 129.

88. فاضل بيات ، الدولة العثمانية في المجال العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ط ا ، ص 22.

89. المصدر السابق ، ص 23.

90. المصدر السابق ، ص 23

91 – 96. المصدر نفسه.

97. فاضل بيات ، دراسات في تاريخ العرب ،ص 19 95.

98. علي زيعور، الدراسة بالعينة للعقل العلمي في العصور العربية العثمانية. بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، ط ١ ، 1993

99. المصدر السابق، ص 108

100. مفتاح محمد دياب، مقدمة في تاريخ الحضارة الإسلامية : بنغازي : الهيئة القومية للبحث العلمي، 1992 . ط ١ ، ص 162 ، 163.

101. علي زيعور ، ص 108.

102. المصدر السابق ،ص 77

103. علي زيعور، ص 76

104. عيسأوي ، ص 107

105. اينالجيك ، ص 51 – 60 .

105مكرر. فاضل بيات ، دراسات في تاريخ العرب ، ص 128 هاش 4

106. محمد حرب ، ص 266.

107. محمد حرب ، ص 267 ، 268.

108. محمد حرب ، ص 269.

109. محمد حرب ، ص 270.

110. محمد حرب ، ص 271

111. محمد حرب ، ص 271.

112. محمد حرب ، ص 296.

113. محمد حرب ، ص 309 - 448

114. المصدر السابق ، ص 311 – 422.

115. اسماعيل الفاروقي ، ص 453.

116. بروكلمان ،ص 482.

117. بروكلمان ،ص 409.

118. رياض رمضان العلمي، الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم الكويت : سلسلة عالم المعرفة رقم 121 يناير 1988. الكويت ، ص 45.

119. اكتوبر 1971، ص 134 . مجلى العربي ، العدد 155

120. رشاد الامام " صورة الدولة العثمانية والاتراك في الكتاب المدرسي التونسي " بحث القي في المؤتمر لبثلبث للعلاقات العربية التركية في عمان الاردن في الفترة 25 – 1985/4/28.

121. محمد حرب ، ص 242.

122. بروكلمان ، ص 456.

123. محمد حرب ، ص 252.

124. محمد حرب ، ص 246.

125. المصدر نفسه.